الفصل الأول: مظاهر انهيار الخلافة

أولا: ظهور الحجاب وانتزاع السلطة من الخليفة

ثانيا: تعاظم النعرات الاثنية والطائفية

ثالثا: الحركات الانفصالية

رابعا: الانحطاط الثقافي

لم يكن انهيار الخلافة الأموية في الأندلس ناجماً عن فراغ، وإنما هناك عدد من المظاهر سبقت ذلك الانهيار ودلت عليه، إذ تمثلت تلك المظاهر بظهور الحجاب وازدياد نفوذهم ومن ثم انتزاع السلطة من خليفة الأندلس، وكذلك تعاظم النعرات الإثنية والطائفية في المجتمع الأندلسي، والحركات الانفصالية التي كان لها تأثير واضح على مجريات الأمور في الأندلس، فضلاً عن الانحطاط الثقافي الذي عَمَّ المرافق الثقافية هناك متمثلة في حرق المكتبات وبيع مقتنياتها، وقتل العلماء وتشريدهم. وسيتم تناول تلك المظاهر بالتفصيل كما يلي:

أولا: ظهور الحجاب وانتزاع السلطة من الخليفة:

أ- مفهوم الحجابة

بادئ ذي بدء إن للحجابة مفهومين الأول لغوي والثاني اصطلاحي، أما الأول فهو من ((حجب الشيء يحجبه حجباً وحجبه: ستره وقد احتجب وتحجب إذا اكتن من وراء حجاب... الحاجب: البواب صفة غالبة وجمعه حجبة وحجاب وخطته الحجابة وحجبه: أي منعه من الدخول))[1].

(١) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠ه/ ١٩٩٩م، ٣ ٥٠ مادة حجب. اصطلح الأندلسيون على تسمية وظائفهم الرسمية بالخطط فللحجابة خطة وللوزارة خطة وللقضاء خطة. انظر: صبحي الصالح: النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت، ١٣٨٥ه/ ١٩٦٥م، ص ٢٧٦.

و((الحجب: كل شيء منع شيئا من شيء فقد حجبه حجباً. والحجابة: ولاية الحاجب. والحجاب، اسم،: ما حجبت به عن شيء ويجمع [على]: حجب. وجمع حاجب حجبة))[١].

أما المفهوم الثاني فالحجابة فهي الوظيفة التي تطلق على الشخص الذي يحجب الخليفة عن العامة، ويفتح بابه أو يغلقها دونهم ويخبره أنباء رعيته ويأخذ لهم الإذن منه،

وهذا الأمر شاع في الدولة الأموية والدولة العباسية، ولم يكن عصر الخلفاء الراشدين يعرف مثل هذه الوظيفة، وإن مفهوم الحجابة في الدولة الأموية في الأندلس هو اللقب الذي أطلق على الشخص الذي يحجب الأمير أو الخليفة عن خاصة الرعية، وعامتهم ويكون حلقة وصل بين الوزراء ومن دونهم، وبذلك فهو أقرب الوزراء إلى الخليفة حتى يستطيع تمثيله في جميع السلطات الفعلية، وهي من الوظائف الدالة على التحضر[٢]. والحاجب يتم

---

(١) الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن احمد: كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، ط٢، قم، ١٤٠٩ه / ١٩٨٨م، ٣ / ٨٦.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٩٩ - ٣٠٠؛ حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٩٠ه / ١٩٧٠م، ص ١٤٩؛ صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص ٣٠٦؛ عبد الرحمن حسين العزاوي: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، دار الخليج، عمان، ١٤٢٧ه / ٢٠٠٦م، ص ١٢٥؛ حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٠٩ه/ ١٩٨٩م، ص ٢٥١. لما انتقل الحكم في الدولة العربية الإسلامية إلى بني أمية ظهرت وظيفة الحاجب، وهذا أول ظهور لها عند المسلمين، ويعد معاوية بن أبي سفيان أول من فكر في

اختياره من قبل الخليفة من بين الوزراء في الدولة، وفي هذا الصدد ذكر المقري: ((وأما قاعدة الوزارة بالأندلس فإنها كانت في مدة بني أمية مشتركة في جماعة يعينهم صاحب الدولة للاعانة والمشاورة، ويخصهم بالمجالسة، ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير فيسميه بالحاجب))[١]. وبهذا فإن الحاجب يكون بمنزلة رئيس لمجلس الوزراء في العصر الحاضر، واختصاصه يشمل الأمور المدنية والعسكرية من خلال تنفيذ أمر الخليفة[٢].

ب- ظهور الحجابة ومهام الحاجب العسكرية

إن المرحلة التي سبقت عصر الإمارة الأموية في الأندلس والتي نعني بها مرحلة الفتح (٩١- ٩٥هـ/ ٧٠٩ – ٧١٣م) ثم عصر الولاة أيضاً (٩٥ - ١٣٨هـ/ ٧١٣ – ٧٥٥م) لم نلحظ أي ذكر لمنصب الحجابة، ويمكن أن نعزو

استحداث وظيفة الحاجب بسبب محاولة الاغتيال الفاشلة التي تعرض لها من قبل الخوارج. انظر: إبراهيم سلمان الكروي وعبد التواب شرف الدين: المرجع في الحضارة العربية الإسلامية، منشورات ذات السلاسل، ط٢، الكويت، ١٤٠٧ه / ١٩٨٧م، ص ٦٥؛ صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص ٣٠٦.

(١) نفح الطيب، ٢١٦/١؛ خاشع المعاضيدي: تاريخ الدولة العربية في الأندلس، مطبعة التعليم العالي، بغداد، ١٤٠٩ه / ١٩٨٨م، ص ١٥٦.

(٢) ابن الخطيب: الإشارة إلى أدب الوزارة، تحقيق: محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٤ه / ٢٠٠٤م، ص ٤٩؛ خاشع المعاضيدي: المرجع السابق، ص٢١٤ ولعل من المفيد هنا تسلط الضوء على صفات الحاجب، فمنها: سهل الوجه، لين العريكة، سالم الجوارح من كل آفة. وللمزيد من التفصيل انظر: الحضرمي، أبو بكر محمد بن الحسن المرادي: كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق: محمد حسن واحمد فريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤ه/ ٢٠٠٣م، ص٣٣ – ٣٤.

ذلك إلى أن الأندلس في تلكما المرحلتين لم تتبلور فيها بعد فكرة الدولة المتكاملة المستقرة، وإنما كانت في حالة توسع من أجل نشر الدين الإسلامي ومتابعة عمليات الفتح، إذ كان الوالي نفسه يقود حملات الفتح، يساعده قادة آخرون، فضلاً عن إدارة شؤون الأندلس الأخرى.

أما فيما يتعلق بأول حاجب في الأندلس فكان **تمام بن علقمه**[١] في عهد الأمير عبد الرحمن الداخل أي في عصر الإمارة الأموية في الأندلس (١٣٨ – ٣١٦هـ/ ٧٥٥ – ٩٢٧م)[٢].

أما مهام الحاجب العسكرية فنجدها تطغى وتظهر بشكل جلي وواضح في عهد الأمير عبد الرحمن الناصر، إذ عين حاجباً له سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣ م هو **بدر بن احمد**[٣] وكان قد بعثه في مهام قتالية عدة، منها القضاء على ثورة حدثت في إشبيلية بعد أن حاصرها وهدم أسوارها ومن ثم استولى عليها، كذلك توجه

---

(١) هو تمام بن علقمه أبو غالب الأندلسي دخل الأندلس في طالعة بلج وهو أحد النقباء القائمين بدولة عبد الرحمن بن معاوية وولي له الحجابة والقيادة، وللمزيد من التفصيل انظر، ابن الأَبَّار: الحُلَّة السّيرَاء، ١ ١٤٣

(٢) مؤلِّف مجهول: أخبار مجموعة، ص ٧٢؛ المقري: نفح الطيب، ٣ ٤٥؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الأول / ص ١٦١؛ إسماعيل مجبل حمد الجنابي: وزراء الدولة الأموية في الأندلس ١٣٨ – ٤٢٢هـ/ ٧٥٥ – ١٠٣١م، رسالة جامعية غير منشورة، كلية الآداب – جامعة الأنبار، الأنبار، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص ٤٠.

(٣) كان وصيفاً للأمير عبد الله ثم أعتقه وصرفه في الخطط الشريفة ثم ولاه الأمير عبد الرحمن الناصر حينها الوزارة والحجابة والقيادة والخيل وولي ابنه عبد الرحمن الكتابة والوزارة والخزانة. وللمزيد من التفصيل انظر: ابن الأَبَّار: الحُلَّة السّيرَاء، ١ / ٢٥٢ – ٢٥٣ .

الحاجب بدر لغزو مدينة لبلة فتمكن منها، واستطاع أن يقبض على الثائر حبيب بن سوادة في **قرمونه**[١]، وفي سنة ٣٠٦هـ/ ٩١٨م غزا مطونية وحقق نصراً عظيماً،وبعد وفاة بدر بن احمد عين **موسى بن محمد بن حدير**[٢] حاجباً عوضاً عنه[٣]. ومما يلفت الانتباه أن الخليفة الناصر كان كثير التغيير لوزراء دولته[٤]، وكان هدفه من ذلك على ما يبدو هو منع رجال دولته من التطاول والاستبداد والاستئثار بالسلطة دون رأيه ومشورته، وعلى المنوال نفسه لم نلحظ أي تردد أو رفض أو حتى اعتراض لما يأمر به الناصر حجابه من القيام بالمهام الموكلة بهم.

---

(١) وهي مدينة قديمة وكبيرة من مدن الأندلس تقع إلى الشرق من اشبيلية وتبعد عن استجه خمسة وأربعين ميلاً وتقع على سفح جبل عليها سور من حجارة يضاهي سور اشبيلية من بنيان الأول كان تثلم، وارتفاع سورها أربعون حجراً. وللمزيد من التفصيل انظر: الإدريسي: نزهة المشتاق، ٢ / ٥٧٢؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص ١٥٨ – ١٥٩ .

(٢) هو من وزراء الناصر وحجابه، وواحد من أكابر الأدباء والكتاب، برع في الشعر والأدب وهو من بيت رياسة وجلالة، عين حاجباً للناصر سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١م. انظر، ابن الأَبَّار: الحُلَّة السّيرَاء، ١ / ٢٣٣؛ الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٣٠٢؛ الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق: روحية عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص ٢١.

(٣) مؤلّف مجهول: قطعة من تاريخ عبد الرحمن الناصر، نشرها: ليفي بروفنسال وغرسية جومث، مدريد، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م، ص ٦٧؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ / ١٦٣ – ١٧٣؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الثالث / ص ٣٧٧، ٣٧٩، ٣٨١، ٤٦٠؛ راغب السرجاني: قصة الأندلس، ١ / ١٩٩ – ٢٠٠.

(٤) ابن الأَبَّار: أعتاب الكتاب، ص١٩٠.

بعد أن عرفنا وظائف الحاجب ومهماته نصل إلى حقيقة مفادها أن مهام الحاجب لا تتعدى أموراً محددة، وصلاحياته غير مطلقة لا تتخطى سلطة الأمير أو الخليفة ومهامه، ولا يعدو كونه منفذاً لأوامر الخليفة فحسب.

ج - تعاظم نفوذ الحجاب

لعل أول تعاظم لنفوذ الحجاب في الأندلس تمثل في شخص الحاجب **جعفر بن عثمان المصحفي**[١] في عهد الخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠ – ٣٦٦هـ/ ٩٦١ – ٩٧٦م) إذ طالما ورد اسمه في عهده بوصفه حاجباً، وقد تولى تدبير شؤون الأندلس السياسية والإدارية عندما مرض الخليفة الحكم المستنصر، إذ كان جعفر بن عثمان المصحفي كاتب الحكم المستنصر الخاص ثم ولاه الشرطة، واتبعه بالحجابة التي عرف بها بعد الحاجب جعفر بن عبد الرحمن الصقلبي، وقد اجتمعت عند جعفر المصحفي سلطات الدولة كافة[٢].

---

(١) هو جعفر بن عثمان بن نصر بن قوي بن عبد الله بن كسيله من بربر بلنسيه وينتمي إلى قيس بالمحالفة، وكان من أهل العلم والأدب وله شعر كثير رائع، وقد أدب الحكم وولي جزيرة ميورقه في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، استوزره الحكم المستنصر وعمل حاجبا له، وبعد وفاة الحكم أفل نجمه ولم يبق له من الحجابة إلا اسمها ثم سجنه محمد بن أبي عامر حتى مات. وللمزيد من التفصيل انظر: الحميدي: جذوة المقتبس، ص ١٦٤؛ ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص ١٥٣ – ١٦٦؛ الضبي: بغية الملتمس، ص ٢١٨؛ ابن الأَبَّار: الحُلَّة السّيرَاء، ١ ٢٥٧. وللتعرف على أبرز الحجاب وخلفائهم انظر: ملحق (٣)، ص ٢١١.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ ٢٥٣ – ٢٥٤؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الرابع / ص ٥١٠ – ٥١١؛ محمد كمال شبانه: الأندلس دراسة تاريخية حضارية، دار العالم العربي، ط٢، القاهرة، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص ١٣٤.

يبدو أن المهام التي أوكلت لهذا الحاجب تخطت مهام الحجابة، وكانت مطلقة على الرغم من وجود ضرورة لذلك، إلى الحد الذي أصبح يدير شؤون الأندلس كافة دون الرجوع إلى الخليفة، وهذه سابقة لم يعهدها عصر الخلافة من قبل ولا حتى عصر

الإمارة في الأندلس، وفي ذات الوقت فإن هذا الحاجب كان يدير تلك الأمور باسم الخليفة الحكم المستنصر، وبإرادته عند مرضه، وهذا يعد أول ظهور لوظيفة الحاجب كما ذكرنا، وبهذا الشكل الذي لم نعهده لهذه الوظيفة من قبل، إذ أصبح الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي قائماً بدولة الخليفة الحكم المستنصر حتى وفاته، وفي هذه الفترة بدأت تظهر طبقة من كبار الموظفين، راح نفوذهم يتسع شيئاً فشيئاً على العكس من عهد الخليفة الناصر عندما كانت مركزيته أكبر، وجمع كل السلطات بيده، وكان شديد الحذر من موظفيه حتى إنه لا يطمئن لهم إلا بمقدار[1]، وواضح أن ظهور مثل هؤلاء الموظفين ذوي النفوذ المتزايد يكون دائماً على حساب السلطة المركزية، فكان ذلك البداية الأولى لذلك الوهن الذي بدأ ينفذ إلى سلطان الخلافة الأموية في الأندلس، ويعد الحاجب المصحفي واحداً من أولئك الموظفين.

لكن ألم يَخْشَ الحكم المستنصر من هذا الحاجب أو يساوره شك في استئثاره بالسلطة أو الاستبداد بها عندما منحه كل تلك الصلاحيات؟ ألم يفكر في تغييره كما فعل والده مع وزرائه من قبل أو حتى إشراك شخص آخر

(١) إبراهيم بيضون: الدولة العربية في إسبانية من الفتح حتى سقوط الخلافة، ٩٢ – ٤٢٢هـ / ٧١١ – ١٠٣١م، دار النهضة العربية، ط٣، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ص ٣٠٤.

معه؟ يبدو أن الإجابة على هذه التساؤلات تكمن في العلاقة القديمة التي تربط الشخصيتين عندما كان المصحفي مؤدب الحكم المستنصر في صباه[١]، ومعنى ذلك أن الحكم كان على معرفة كبيرة بمؤدبه وكان نتيجتها ثقة عالية جعلته يضع أمور الدولة بين يديه. وقد عبر عن ذلك بن خاقان خير تعبير بقوله: ((... واستوزره المستنصر، وعنه كان يسمع وبه يبصر، فأدرك بذلك ما أدرك...))[٢]. وعندما أفلت شمس الحاجب المصحفي كانت هناك شخصية ارتفع شأنها شيئاً فشيئاً في سماء الأندلس، وفي عهد الخليفة الحكم المستنصر ألا وهي شخصية **محمد بن أبي عامر**[٣] الذي عينه الخليفة الحكم المستنصر في وظائف متعددة ذات أهمية كبيرة في الدولة سيأتي تناولها لاحقا، وبهذا فإنه تقلد الكثير من الوظائف والمناصب في الدولة وبسرعة وكانت سيرته حسنة، وربما يعود الفضل في ذلك إلى مواهبه وخبرته، فضلاً عن عطف السيدة صبح زوجة الخليفة وأم ولده هشام، ومساندتها له[٤].

---

(١) ابن الأَبَّار: الحُلَّة السّيرَاء، ١ / ٢٥٧.

(٢) مطمح الأنفس، ص ١٥٤.

(٣) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافري يرجع إلى أصل من الأصول العربية وجده عبد الملك بن عامر المعافري أول من دخل الأندلس مع الفاتحين موسى وطارق، وفد على قرطبة حدثا وبرع في الأدب والشريعة، وكانت له همة يحدث بها نفسه بإدراك معالي الأمور. وللمزيد من التفصيل انظر: الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٦٩ – ٧٠؛ الضبي: بغية الملتمس، ص ٩٩ – ١٠٠؛ ابن الخطيب: أعمال الإعلام، ص ٥٩؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الرابع / ص ٥٢١؛ احمد شلبي: التاريخ الإسلامي، ص ١١١ – ١١٢ .

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ ٢٥٩؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول

يبدو من خلال ما تقدم، أن بداية عهد الخليفة الحكم المستنصر للأندلس ٣٥٠هـ ٩٦١م تعد بداية لتعاظم نفوذ وتسلط الحجاب، إذ كان أولهم كما رأينا الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي الذي أدار شؤون الأندلس في عهد الخليفة الحكم المستنصر فضلاً عن دوره الأساسي وبمساندة محمد بن أبي عامر صاحب الشرطة في أخذ البيعة لهشام المؤيد الذي سيأتي ذكره لاحقا.

تمت بيعة هشام بن الحكم بمساندة أمه السيدة صبح زوجة الخليفة الحكم المستنصر ومساعدة الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، وصاحب الشرطة محمد بن أبي عامر على الرغم من معارضة الفتيان الصقالبة المتنفذين، وبعد ستة أيام من البيعة أمر الخليفة الجديد هشام بن الحكم بترقية وظيفة الحجابة لجعفر بن عثمان المصحفي، ورقى محمد ابن أبي عامر إلى مرتبة الوزارة لمساعدة الحاجب في إدارة شؤون الدولة، إلا أن الحاجب جعفر امتعض من ترقية محمد بن أبي عامر لأنه رأى في ذلك انتقاصاً لسلطته ونكراناً

لجميله في إدارة أمور الدولة لردح من الزمن ((فلما كان يوم السبت السادس من جلوس هشام وهو العاشر لصفر سنة ٣٦٦ه/ ٩٧٦م قلد الخليفة هشام حجابته وزير أبيه الأخص أبا الحسن جعفر بن عثمان المصحفي وفي هذا اليوم انهض الخليفة هشام محمد ابن أبي عامر إلى خطة الوزارة، نقله إليها عن شرطته الوسطى واجراه رسيلاً لحاجبه جعفر في تدبير دولته فهاده محمد شأوا [حزنا]، وجرى إلى غاية برز فيها دونه، سابقاً في الحلبة، وتخلف جعفر عن

/ القسم الرابع / ص ٥٢٢.

مداه))[١]، ليبدأ من الآن الصراع الخفي والمعلن بين الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ومحمد بن أبي عامر حلفاء الأمس من أجل أخذ البيعة لهشام المؤيد. وهكذا سعى محمد بن أبي عامر إلى التخلص من أحد منافسيه، وفي نهاية المطاف نجح نجاحاً كبيراً وتخلص من منافسه الحاجب جعفر المصحفي[٢]، وقد سبق ذلك عملية عزل جعفر المصحفي التي تمت بأمر من الخليفة هشام، وبدهاء وتدبير من محمد بن أبي عامر ليظهر نجم الحاجب محمد بن أبي عامر بوضوح بعد أن حظي بثقة أم الخليفة هشام المؤيد السيدة صبح، ومساندة صهره وقائد الجيش **غالب بن عبد الرحمن**[٣] الذي سبق وان قلده الخليفة

(١) ابن عذارى: المصدر السابق، ٢ ٢٥٤.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ / ٢٥٦؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الرابع / ص ٥٢٥؛ عصام محمد شبارو: الأندلس، ص ١٩٣ يرى السيد عبد العزيز سالم أن الذين ساندوا هشام المؤيد من أجل الحصول على البيعة إضافة لما ذكرنا غالب مولى الحكم صاحب مدينة سالم في حين لم يرد ذكر للسيدة صبح. انظر: عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص ٣٢٣. إلا أن هناك ملاحظة جديرة بالاهتمام تتمثل في أن قائد الجند غالب الناصري كان مقيما خارج قرطبة في مدينة سالم، وبذلك فهو بعيد عن الحدث وحتى لو كانت له مساندة فهي غير مباشرة لأنه بعيد مكانياً حتى إنه على الرغم من تقلده خطة الوزارة على سبيل المثال كان يقيم بالثغر بعيداً عن قرطبة. انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الرابع / ص ٥٣٧، أما السيدة صبح فمن الطبيعي أن يكون لها دورٌ كبيرٌ إذ يعد سعيها من أجل حصول ابنها على الخلافة أمراً طبيعياً لأنها أُمّ أولاً وأخيراً.

(٣) هو غالب كبير مماليك الحكم، وسيف دولة الناصر والحكم، وصاحب مدينة سالم وشيخ الموالي قاطبة وفارس الأندلس يومئذ، أساء المصحفي معاملته عندما تولى الحجابة لهشام المؤيد واستغل ذلك ابن أبي عامر لصالحه وسلك طرق ملتوية للإيقاع بين الرجلين، إذ استعان بغالب على المصحفي. وللمزيد من التفصيل انظر: ابن الأَبَّار: الحُلَّة السّيرَاء، ١ /

هشام المؤيد الحجابة إلى جانب الحاجب جعفر المصحفي، وبذلك أصبح للخليفة حاجبان في آن واحد في سابقة لم تشهدها الخلافة من قبل، واستمرت هذه الحالة قرابة أربعة أشهر حتى عزل المصحفي سنة ٣٦٧هـ/ ٩٨٧م[1] كما ذكر ذلك من قبل، وبذلك فإن الخلافة أمست تتقاذفها أمواج الحجاب، عندما تتلاشى موجة سرعان ما تظهر موجة أخرى، وهذا ما حدث عندما تلاشى دور الحاجب المصحفي ليحل محله دور حاجب آخر. ومن المفيد عقد مقارنة بين جعفر المصحفي ومحمد بن أبي عامر إذ سيلاحظ تساوي الكفتين إلى حد ما من حيث المهارات الإدارية والسياسية، وليس أدل على ذلك من إدارة شؤون الأندلس على أكمل وجه عند مرض الخليفة الحكم المستنصر من قبل جعفر المصحفي، وقد تمت الإشارة إلى ذلك من قبل.

كذلك الحال بالنسبة لمحمد بن أبي عامر الذي تمتع بمهارات عالية أهلته للوظائف العديدة التي تبوأها منذ أيام الخليفة الحكم المستنصر، فضلاً عن وكالة ولي العهد، ثم أوكلت له مهمة الخزانة العامة، ثم خطة المواريث، ثم استقضاه الخليفة الحكم المستنصر على كور مدينة اشبيلية، ثم رقي لإدارة الشرطة العليا، ثم عين في النظر على أمانة دار السكة، ثم قدمه إلى الأمانات بالعدوة وأضيف لمهماته النظر في الحشم، وهذا كله إن دل على شيء فإنما يدل على مهارات عالية تمتع بها محمد بن أبي عامر في إدارة مرافق الدولة، إلا أن

---

٢١٦ هامش رقم (١)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٦١ - ٦٤ .

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ / ٢٦٧؛ عبد المنعم الهاشمي: الخلافة الأندلسية، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص ٥٢٩.

الذي زاد في رجحان كفته هو عندما جهز المال والجند وقاد حملة لقتال قشتالة التي استغلت مرض الخليفة المستنصر واعتدت على ممتلكات المسلمين، وقد حقق نصراً على القشتاليين وجلب الأسرى والغنائم للأندلس، وكان هذا النصر والقيادة الناجحة لهذه الحملة، فضلاً عن عطف أرملة الخليفة الحكم المستنصر عليه، سببا في رجحان كفته أمام جعفر بن عثمان المصحفي[١]. وبذلك كانت كفة المنصور هي الأرجح من الناحية العسكرية، على الرغم من مشاركة المصحفي في أغلب الغزوات التي قادها المنصور بن أبي عامر، ولكن دون قتال لأن المنصور كان يصطحبه معه كمسجون[٢]. كما أن هناك عاملاً آخَر جعل موقف المصحفي يضعف أمام ابن أبي عامر، وذلك عندما جعل رجال الدولة والوزراء ينفرون منه، بل ويناصبوه العداء دون أن يدرك ذلك، وذلك عندما استحوذ على العديد من وزارات الدولة وإناطتها **بأبنائه وأقاربه**[٣] سالباً بذلك حقاً من حقوق رجال الدول الذين اعتادوا عليه منذ

---

(١) ابن عذارى: المصدر السابق، ٢ ٢٥٣، ٢٥٩؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٥٩ – ٦٠؛ ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى: المغرب في حلي المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، ط٤، القاهرة، ١٤١٤ه/ ١٩٩٣م، ت ١٢٨، ١ / ٢٠٠؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الرابع / ص ٥٢٢، ٥٢٧.

(٢) ابن هذيل، علي بن عبد الرحمن الأندلسي: تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس، تحقيق: عبد الاله احمد نبهان ومحمد فاتح صالح زغل، مركز زايد للتراث والتاريخ، دار البارودي، أبو ظبي، ١٤٥٢ه/ ٢٠٠٤م، ص ٢٨٥؛ المقري: نفح الطيب، ١ / ٦٠٢؛ علي أحمد عبد الله القحطاني: الدولة العامرية في الأندلس، رسالة ماجستير غير منشورة، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، ١٤٠١ه/ ١٩٨١م، ص ٥٨ .

(٣) تمكن من تعيين ابن أخيه هشام بن محمد بن عثمان في خطة الخيل ثم أصبح وزيرا، وولى بنيه

نشوء الدولة الأموية في الأندلس وهو إناطة الوزارات إلى رجال من بيوتات الأندلس المعروفة، فلا عجب من عداء هؤلاء لجعفر بن عثمان المصحفي وسعيهم لإسقاطه ومناصرة بن أبي عامر عليه.

ما إن تَخَلَّصَ محمد بن أبي عامر من منافسه الأول الحاجب المصحفي، حتى انقلب على قائد الجيش غالب، وأعد جيشاً لقتال جيش غالب بقيادة شيخ من شيوخ زناته الموالين لبني أمية في الأندلس هو الحاجب جعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي، الذي اشترك مع المنصور في الحجابة بداية عهده بعد المصحفي، والذي قربه إليه ودعمه وكان جل جند هذا الجيش من المغاربة، والتحم الجيشان وحلت الهزيمة بجيش غالب الذي سقط ميتاً من فوق فرسه في المعركة سنة ٣٧١هـ/ ٩٨١م وهو في الثمانين من عمره[1]، وما إن تحقق النصر لمحمد بن أبي عامر وتخلص من منافس آخر حتى أعد العدة للتخلص أيضاً من ابن الأندلسي قتلا عندما نادمه ليلا ثم بعث إليه من قتله في بيته ليصبح سيد الموقف في الأندلس دون منافس ويتخذ سمة الملك فتلقب بالحاجب المنصور. وأخذ الوزراء بتقبيل يده وكتب اسمه على النقود ودعا له على المنابر بعد دعاء الخليفة هشام المؤيد الذي لم يبق له من الخلافة سوى اسمها فقط. وأضحت صورة الحكم والسلطان غير فعالة وذلك سنة ٣٧١هـ

محمد، وعثمان، وعبد الرحمن، وأخاه سعيد، وابن أخيه محمد الشرطة العليا والوسطى، وجعل على المدينة ابنه محمد. انظر: ابن الأَبَّار: الحُلَّة السّيرَاء، ١ / ٢٥٨.

(١) لم يعرف على وجه الدقة سبب موته هل كان نتيجة جراح أصيب بها في المعركة أو هل بسبب الإرهاق المفرط بسبب المعركة، والذي مبعثه الشيخوخة لاسيما وقد ناهز الثمانين من عمره. انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٦٤؛ إبراهيم بيضون: الدولة العربية، ص ٣٢٦ .

/ ٩٨١ م. وبهذا ساوى الخليفة في كل شيء سوى الاسم فقط إذ تصدر الكتب باسم الخليفة[١].

ومما لا شك فيه أن ما حدث من تصفية بين الحجاب، وتصفية لمن يقف في

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ ٢٧٨ – ٢٨٠؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٦٣ – ٦٥؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الرابع / ص ٥٧٥؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص ٣٣٠؛ إبراهيم بيضون: الدولة العربية، ص ٣٢٦. وحتى الكتب التي كانت تصدر باسم الخليفة هشام المؤيد تغيرت، ففي سنة ٣٨٢ ه /٩٩٢م قطع المنصور ابن أبي عامر من الكتب خاتم المؤيد، واقتصر على خاتمه. انظر: ابن أبي زرع، علي الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، راجعه: عبد الوهاب بن منصور، ط٢، المغرب، ١٤٢٠ه/ ١٩٩٩م، ص١٤٧. تذكر العديد من المراجع مصطلح الدولة العامرية على الفترة (٣٦٨ – ٣٩٩ه/ ٩٧٨ – ١٠٠٩م) نسبة إلى محمد بن أبي عامر مثل: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الرابع / ص٥٣٣؛ خليل إبراهيم السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص ٢١٠؛ عبد المنعم الهاشمي: الخلافة الأندلسية، ص ٥٣١. وفي حقيقة الأمر لم تكن هناك دولة بهذا الاسم من حيث الواقع بل كانت الدولة الأموية وكان هناك خليفة أموي وإن كان وجوده شكليا إلا أن الخطبة كانت باسمه والسكة يكتب عليها اسمه، وحتى تلك المراجع تسمي المرحلة الممتدة من ٣١٦ – ٤٢٢ه/ ٩٢٨ – ١٠٣١م بعصر الخلافة الأموية بما يعني أن الحكم والخلافة للأمويين، لذلك لا يمكن أن تكون هناك دولة داخل دولة فالخليفة الأموي حي يرزق على الرغم من الحجر عليه وتهميش دوره إلا أنه يملك السلطة الروحية، ولذلك من الأصوب ألا نسميها الدولة العامرية بل تسمى فترة تسلط الأسرة العامرية، ولكن يمكن أن تصح تسمية الدولة العامرية فيما لو أصبح المنصور بن أبي عامر خليفة بعد إزاحة الخليفة هشام المؤيد عن منصب الخليفة وهذا لم يحدث، ومثل هذا حصل عندما قتل الحموديون الخليفة الأموي وأصبح علي بن حمود خليفة بدلا عنه يملك السلطة الدينية (الروحية) والدنيوية سنة ٤٠٧ه/ ١٠١٦م لتصح تسمية الدولة الحمودية .

طريقهم كان عبئاً على الدولة. كلفها الجهد والوقت بل السير في طريق انهيار الدولة، إلا أن ذلك الانهيار ربما أُجِّلَ بعض الوقت بسبب شدة وقوة الحاكم الفعلي الذي يحكم الأندلس.

د - استبداد الحجاب

بعد أن تخلص محمد بن أبي عامر من أبرز منافسيه، ووفقا للمعطيات السابقة راح وأبناؤه من بعده يضفون على منصب الحاجب مظهراً من مظاهر الملك والأبهة والشرف، إذ صار عنواناً لا يستطيع من جاء من بعدهم أن يتجاوزه حتى وان تلقب بألقاب الملك، إذ لابد له من ذكر الحاجب إلى جانب الألقاب الأخرى لما يحمله من شرف ورفعة، وقد عَبَّر ابن خلدون عن هذا الأمر بقوله:((ولما بدؤوا في مظاهر الملك وأطواره جاء من بعدهم من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها، وكانوا يعدونها شرفا لهم، وكان أعظمهم ملكا بعد انتحال ألقاب الملك وأسمائه لابد له من ذكر الحاجب، وفي الوزارتين يعنون به السيف والقلم، ويدلون بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة والخاصة وبذي الوزارتين على جمعه لخطتي السيف والقلم))[١].

لم يقف الأمر عند هذا الحد إذ سرعان ما اقترن الاستبداد باسم الحجاب المنصور بن أبي عامر وأبنائه من بعده[٢]، إذ اختص بمنصب الحجابة لما تحمله

(١) المقدمة، ص ٣٠٠.

(٢) حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، ص ٢٥١؛ السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، الناشر مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٤٠٦ه / ١٩٨٥م، ص ٣٢٧؛ صلاح احمد عيد خليفة: عامة قرطبة منذ بداية الفتنة حتى نهاية عهد المرابطين ٣٩٩ –

من شرف لصاحبها ((... ثم لما جاء الاستبداد على الدولة [الدولة الأموية في الأندلس] اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها. فكان المنصور بن أبي عامر وأبناؤه كذلك))[١]. ولكن إذا كان الاستبداد وصمة في جبين الأسرة العامرية، وأولهم المنصور فإن الحاجب جعفر المصحفي سبق وأن سار في هذا الاتجاه مفضلاً مصالحه الشخصية، وحرص كل الحرص على جمع المال، والسخرية بمن هو دونه ((... ونصب لأمانيه الحبائل والشرك، واقتنى وادخر، وزرى بمن سواه وسخر...))[٢].

ترك الحاجب محمد بن أبي عامر منصب الحجابة عندما رشح ابنه عبد الملك للولاية فأصبح لقب الحاجب مقتصراً على عبد الملك بن محمد بن أبي عامر واكتفى أبوه بلقب المنصور سنة ٣٧١هـ/ ٩٩١م وصار يكتب بعد حذف اسم الحجابة ((من المنصور أبي عامر (وفقه الله) إلى فلان))[٣]، وبذلك فإن الطريقة التي وصل بها المنصور إلى السلطة، ونجاح مسعاه في السيطرة على كل شيء والاستبداد بالأمر، أدى إلى تفشي روح الطمع، وشيوع التطلع إلى الغلبة، وبذلك فتح الباب على مصراعيه لكل مغامر يسعى إلى الحكم، وخاصة أولئك

٥٤٣هـ / ١٠٠٩ – ١١٤٨م، رسالة جامعية غير منشورة لنيل درجة الدكتوراه، قسم التاريخ – كلية الآداب / جامعة المنيا، المنيا، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص ٨١.

(١) ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٣٠٠؛ وعن نفس موضوع استبداد المنصور محمد بن أبي عامر انظر: Aguado: OP.Cit , P.٤٣٢-٤٣٣.

(٢) ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص١٥٤ .

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ / ٢٩٣.

الذين يرون أن محمد بن أبي عامر أقل منهم في المنبت والاستعداد[١].

تجدر الإشارة إلى قضية الحجر على الخليفة هشام المؤيد التي تعد نوعا من أنواع الاستبداد الذي استبد به المنصور بن أبي عامر، فهناك من يشير إلى أن المنصور حجر على الخليفة هشام المؤيد ومنعه من الاتصال بالناس منذ أن ولي الخلافة[٢]. وهناك من يرى أن عملية الحجر تمت بعد أن تقلد المنصور بن أبي عامر الحجابة بالاشتراك مع صهره القائد غالب وقضائه على الحاجب المصحفي[٣].

يبدو أن الرأي الثاني أقرب إلى الصواب من الرأي الأول، إذ لا يمكن أن تتم عملية الحجر مباشرة بعد تولية الخليفة هشام، لأن ذلك ربما يثير الآخرين على محمد بن أبي عامر، فضلاً عن أن الأخير كان بحاجة إلى بطانة يستند إليها ويحتمي بها من منافسيه لأن مثل تلك العملية تثير حفيظة العامة قبل الخاصة. لذا فإن عملية الحجر تمت بعد أن قضى المنصور بن أبي عامر على منافسه الأول

---

(١) احمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٦ه/ ١٩٨٥م، ص ٢٦٨؛ أحموت أحمد الحسن: علاقات الأندلس بالممالك النصرانية في الشمال من سقوط الخلافة إلى نهاية ملوك الطوائف، رسالة جامعية – دكتوراه – غير منشورة، كلية الآداب / جامعة عين شمس، القاهرة، ١٤١٢ه/ ١٩٩١م، ص ١٢.

(٢) إذ كان المنصور بن أبي عامر يرغم السيدة صبح بدهائه حتى تخلق الأعذار لحجب ولدها منذ أن ولي الخلافة. انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول/ القسم الثاني/ ص ٥٢٥.

(٣) ابن عذارى: المصدر السابق، ٢ ٢٧٢؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص ٣٣١.

الحاجب المصحفي، وبعد أن كَونَّ له بطانة خاصة به.

لعل من المرجح أن ذلك تم بأمر المنصور بن أبي عامر، وإشرافه على هذا الحجر، وحتى عند غياب بن أبي عامر في الغزو كان يوكل من ينوب عنه بمنع الخليفة هشام المؤيد من التصرف، والظهور أمام الناس إلى أن يعود من غزوته، وحتى عندما شيد المنصور بن أبي عامر الزاهرة وانتقل إليها بحاشيته ترك الخليفة بقصره وَبَنَى حول القصر سوراً دائرياً ودعمه بالبوابين، وجعل العيون عليه[١].

كما لم يتوان المنصور بن أبي عامر عن تصفية الخصوم والمنافسين له، كما عمل على تشتيت بيوتات الأندلس والقضاء على رجالات الدولة، وبأمر من الخليفة هشام المؤيد وبخط يده وتوقيعه ((ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه فمال عليهم وحطم من مراتبهم وقتل بعضهم ببعض كل ذلك عن أمر هشام وخطه وتوقيعه))[٢]. وعلى الرغم مما نسب للمنصور من ممارسات

(١) مؤلِّف مجهول: تاريخ الأندلس، ص ٢٢١ -٢٢٢؛ النويري: نهاية الإرب، ٢٣ / ٤٠٤.

(٢) ابن خلدون: تاريخ، ٤ / ١٤٧. كان مما يميز حكم الأمويين في الأندلس هو اعتمادهم على البيوتات والأسر ذات الارتباط الوثيق بالبيت الأموي إذ ظهر على مَرّ القرون الماضية عدد من الرجال الذين تميزوا بالكفاءة والمقدرة فضلاً عن الولاء للبيت الأموي إذ اعتمد عليهم الأمراء الأمويون في المشورة والإدارة، ومن هذه البيوت والعائلات: بني شهيد، بني حدير، بني أبي عبدة، وبني فطيس. انظر: أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ١٤٢٢ه/ ٢٠٠١م، ص ١٦٠. إلا أن من الإنصاف أن لا نحمل المنصور بن أبي عامر كامل المسؤولية عن ذلك لأن تلك الممارسات ظهرت في النصف الثاني من عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر عندما انحسر سلطان تلك الأسر. انظر: محمد عبد

استبدادية، فإنه من الإنصاف أن نذكر صفة تمتع بها المنصور تمثلت بالذكاء العالي، إذ استطاع بذكائه استمالة الجند إلى جانبه فضلاً عن سيرته الحسنه مع الناس، وكان ((في غاية الذكاء واستمالة الجند وسار في الناس سيرة حسنة...))[١]، يبدو أن السيرة الحسنة تلك كانت مع عامة الناس ولم تكن مع من يعتقدهم منافسيه وخصومه.

على المنوال نفسه سار عبد الملك بن المنصور من استبداد وكسب المكاسب غير الشرعية، إذ تكنى بأبي مروان وتلقب بالمظفر، وتلقب أيضاً بسيف الدولة، وبهذا كان عبد الملك المظفر أول من حصل على لقبين من بين حكام الأندلس[٢]، وكذلك سأل عبد الملك المظفر الخليفة ترشيح ابنه الغلام محمد إلى مرتبة عالية وأن يتقلد منصب الوزراء ويلقب بذي الوزارتين ويكنى بأبي عامر كنية جده، فأجابه الخليفة على طلبه وأصدر كتبه لسائر الأندلس بذلك[٣].

الوهاب خلاف: دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٤٢٥ه/ ٢٠٠٤م، ص ٢٢ – ٢٣ .

(١) ابن أبي دينار، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم القيرواني: المؤنس في أخبار افريقيا وتونس، تحقيق: محمد شمام، تونس، ١٣٨٧ه/ ١٩٦٧م، ص ١٠٠.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣ ١٦؛ محمد عبده حتامله: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، مطابع الدستور التجارية، عَمان، ١٤٢٠ه/ ٢٠٠٠م، ص ٤١٧. كما أطلق لقب ناصر الدين على الحاجب عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر انظر: حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، ص ٥٢٧.

(٣) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣ ١٦ – ١٧.

خلاصة القول أن الخليفة الأموي في الأندلس بعدما كان رمزاً للوحدة السياسية والدينية للبلاد أصبح ألعوبة بيد الحاجب الذي حَجَم دوره، فراح يصول ويجول بمرأى ومسمع من الخليفة الذي لا حول له ولا قوة.

ثانيا: تعاظم النعرات الإثنية والطائفية:

سادت الأندلس طيلة الحكم العربي الإسلامي في العصور الماضية ولعشرات السنين حالة التعايش السلمي، والتي شكلت أنموذجاً رائعاً للتسامح والتعايش بين الشعوب والإثنيات من: عرب وبربر ومولدين وصقالبة وغيرها من الطوائف المختلفة، لتنصهر في بودقة واحدة مكونة بذلك وحدة اجتماعية ذات سمات حضارية مشتركة، وانسجام واضح على الرغم مما كان يظهر بين الفينة والأخرى من نعرات اثنية متعصبة، والتي لم تكن سوى استثناءات في تاريخ الأندلس في تلك الحقب الزمنية. إلا أن الحال تغير مع أفول نجم الخلفاء والحكام الأقوياء للأندلس لتتعاظم تلك النعرات وتشكل مظهراً من مظاهر انهيار الخلافة في الأندلس، والتي سوف نتناولها كُلاً على حده.

- العرب

سعى الأمويون في الأندلس ومنذ البداية إلى الانفراد في الأمر، حتى يتمكنوا من السلطة، وقد قضوا على النفوذ العربي بصورة كاملة، وعندما وصل الأمر إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر أتم ما قام به أسلافه، وقضى على النفوذ العربي، ولأجل ذلك زاد من مطاردة الأسر والقبائل العربية، وقام باصطناع الموالي والصقالبة، ومنحهم ثقته مما زاد من نفوذهم أيضاً، وكانت

هذه السياسة الأموية مجانبة للصواب، إذ كانت أحد الأسباب التي كان من جرائها أن انصرفت القبائل العربية عن نصرة الخليفة الناصر في معركة الخندق سنة ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م حتى حصلت الهزيمة[١].

عندما سيطر المنصور بن أبي عامر على السلطة واستبد بها، سار على نهج الخلفاء الأمويين في الأندلس من خلال استقدام أعداد كبيرة من البربر من أجل القضاء على النفوذ العربي، ((باجازة البرابرة أخمل بهم أولئك الاعلام الأكابر وانه قاومهم بأضدادهم وأستكثر من أعدادهم حتى تغلبوا على الجمهور وسلبوا منهم الظهور...))[٢]، وذلك لدعم سلطته المركزية، وقد عَبَّر ابن خلدون عما تقدم حين قال: ((وكذا دولة بني أمية بالأندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها واقتسموا خطتها وتنافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة وانتزى كل واحد منهم على ما كان في ولايته وشمخ بأنفه... فاستظهروا على أمرهم بالموالي والمصطنعين والطراء [الذين أتوا من أماكن أخرى] على الأندلس من أهل العدوة من قبائل البربر وزناتة وغيرهم اقتداء بالدولة في آخر أمرها في الاستظهار بهم حين ضعفت عصبية العرب واستبد ابن أبي عامر على الدولة))[٣] ونتيجة لذلك فإن كل عنصر من العناصر المكونة للمجتمع في الأندلس بات يخشى على نفوذه، بل ويسعى حثيثاً من أجل المحافظة على ذلك النفوذ بعدما

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٣٦-٣٧؛ رينهارت دوزي: المسلمون في الأندلس، ٣٩/٢.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢/ ٢٧٤.

(٣) المقدمة، ص ١٩٨ – ١٩٩.

تعاظمت النعرات الطائفية والإثنية.

أما العنصر العربي فبعدما فقد نفوذه نمت لديهم النعرة الإثنية والطائفية، والتي حفزته على استعادة ذلك النفوذ بكل الطرق والوسائل المتوفرة حتى وإن كان ذلك على حساب الطوائف الأخرى. ولعل ما حصل من القضاء على الأسرة العامرية سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م واندلاع ثورة **محمد المهدي**[١]، لهو دليل واضح على ما تحمله صدور الأمويين **وأهل قرطبة**[٢] من كره للصقالبة العامريين وللبربر بعد أن تعاظمت النعرة الإثنية والطائفية لدى أهل قرطبة ((كان أهل قرطبة على الجملة من قلة الرضى عن أملاكهم العامريين بحال من الجور عظيمة إلى أن وثبوا عليهم فأهلكوا الدولة وبها حان حينهم والله يحكم لا معقب لحكمه))[٣]، وبالغ أهل قرطبة كثيراً بالاحتفال بمناسبة الثورة ونهاية تسلط الأسرة العامرية[٤]، وراحوا يطاردون البربر وبنهبون ويدمرون

(١) هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، ولد سنة ست وستين وثلاثمائة للهجرة، وأمه أم ولد تسمى مزنة، كان له ولد اسمه عبيد الله انقرض ولا عقب له، كنيته أبو الوليد أو - أبو أيوب كما ذكر ذلك ابن الخطيب في كتابه أعمال الأعلام - وتسمى بالمهدي، كان جسوراً مضطرب الرأي، قتل أبيه على يد الأسرة العامرية قاد ثورة ضد عبد الرحمن شنجول بتشجيع من المروانيين والذلفاء أم عبد الملك بن محمد بن أبي عامر التي أمدته بالمال. وللمزيد من التفصيل انظر: الحميدي: جذوة المقتبس، ص٢٢؛ الضبي: بغية الملتمس، ص ٢٤ – ٢٥؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٠٩ – ١١١.

(٢) إن الأغلب الأعم من أهل قرطبة هم من العرب. انظر: حسن يوسف دويدار: المجتمع الأندلسي، ص ٨٩.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ١٣.

(٤) ابن الخطيب: اعمال الاعلام، ص ١١٢؛ عبد الحليم عويس: التكاثر المادي، ص ٢٢.

ممتلكاتهم، ويقتلون من يصادفوه منهم، حتى وصل الأمر إلى الإهانة والتطاول من قبل العامة على قادتهم وشيوخهم مثل **زاوي بن زيرى**[١]، وغيره من القادة، وكان ذلك بمسمع ومرأى من محمد المهدي[٢]، وكان أهل قرطبة يبررون اعتداءهم على البربر بأنهم أصل الفوضى وسر استبداد الأسرة العامرية[٣].

غير أن الأمر لم يقف عند هذا الحد إذ سرعان ما استغل هشام بن سليمان الناصر - لقب فيما بعد بالرشيد - والد سليمان المعتقل عند محمد المهدي وولي عهده السابق، استغل التذمر من سلوكيات محمد المهدي الشائنة وإهانته للبربر وزعمائهم فضلاً عن حرصه على الأمويين من انهيار أمرهم، في الوقت الذي أشيع فيه عن نية البربر القيام بثورة واتصالهم بالرشيد، لذلك راح يدبر الأمور من أجل خلع محمد المهدي وتزعم تحالف ضم الأمويين ومواليهم والبربر والصقالبة العامريين[٤].

لكن تلك المحاولة لم يكتب لها النجاح، وانتصر محمد المهدي على جموع

---

(١) هو زاوى بن زيري بن مناد الصنهاجي، كان داهية البربر، رفض ما قام به أصحابه من تخريب مدينة البيرة، هزم عبد الرحمن المرتضى الأموي سنة ٤٠٩هـ/ ١٠١٨م، ثم خاف الكره من أهل الأندلس فرحل بما معه من ذخائر إلى إفريقية. انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٣٠ – ١٣١؛ ابن سعيد: المغرب، ت ٤١٣، ٢ / ١٠٦.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣/ ٧٥- ٧٦.

(٣) رينهارت دوزي: المسلمون في الأندلس، ٢/ ١٧٠.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣ / ٧٨ – ٧٩؛ المقري: نفح الطيب، ١ / ٤٢٧؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الرابع / ص ٦٤٥.

هشام الرشيد الذي قتل بعد أن أسره أهل قرطبة حلفاء محمد المهدي[١]، وبهذا التصدع الذي أصاب البيت الأموي فإن ما حصل يبرز دون أدنى شك نهاية الوحدة الداخلية بين مكونات المجتمع الأندلسي، والتي طالما حققها الخلفاء الكبار بشتى الطرق، وتنامي النزعات الإثنية والطائفية بين مكونات المجتمع، فضلاً عن ظهور أنماطٍ من الكراهية والوحشية لم يعرف تاريخ الأندلس شبيهاً لها من قبل[٢].

خلاصة القول أن العرب الذين كانوا أصحاب المراكز والقرار، غلب على أمرهم في عهد المنصور بن أبي عامر مما أدى إلى تعاظم نعرتهم الإثنية، وشعروا أن دورهم قد جاء بعد وفاة المنصور ليستعيدوا ما فقدوه من أمجاد.

- البربر

كان للبربر دور كبير في فتح الأندلس، إذ كان جلُّ جنود حملة القائد طارق بن زياد من البربر إلا القليل من العرب[٣]، لكن العرب استأثروا لأنفسهم الخيرات، والأراضي الخصبة والصالحة للزراعة، وصاروا حكاماً للأندلس، واستحوذوا على الوظائف العليا. وفي الوقت نفسه لم يرد ذكر في أي مصدر من

---

(١) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣ / ٨١؛ ابن الأَبَّار: الحُلَّة السّيرَاء، ٢/ ٦.

(٢) يوسف احمد بني ياسين: نهاية الخلافة الأموية في الأندلس قراءة في المجريات والأسباب ٤١٤/ ٤٢٢ه، مجلة دراسات للعلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد/ ٣٨، العدد/ ١، الأردن، ١٤٣٢ه/ ٢٠١١م، ص ١١٢ – ١١٣.

(٣) مؤلِّف مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٧.

المصادر التاريخية عن تولي أيٌّ واحد من البربر إمارة الأندلس[١]، ولم ينظر العرب إلى البربر بعين المساواة بل كانوا يعتبرونهم أدنى مستوى منهم[٢]، وهذا بدوره كان له آثار سلبية على العلاقة بين الطرفين.

استقدم المنصور بن أبي عامر وأبناؤه من بعده أعداداً كبيرةً من بربر المغرب كَوَّنَ منهم جيشاً تحت إمرته، وأبعد العرب عن الجيش[٣]، ولهذا فإن البربر صار لهم دور ريادي في الأندلس، وصار كثير منهم قادة في الجيش، وأصحاب مراكز مهمة على حساب الأرستقراطية العربية التي انحسر دورها، وحلَّ محلها نوع جديد من الأرستقراطية هو أرستقراطية البربر التي ما كانت لتنشأ لولا رعاية المنصور لها. ومن الطبيعي أن تتنامى لدى البربر النزعة الإثنية والطائفية، والتعصب لأبناء جلدتهم بل ويسعون للمحافظة على المكاسب التي حصلوا عليها بدمائهم بأي طريقة وثمن حتى لا يعودوا طبقة مهمشة في المجتمع. فنراهم عندما شعروا بأن مركزهم بات قلقاً في حكم عبد الرحمن شنجول، ولمسوا سفهه وضعفه انقلبوا عليه وسلموه لخصمه، وراحوا

---

(١) عبد المجيد نعنعي: تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٧ه/ ١٩٨٦م، ص ١٠٨ – ١٠٩.

(٢) عبد المجيد عبد الرضا: دور البربر في سقوط الدولة الأموية في الأندلس، مجلة كلية الآداب، العدد / ٣، بغداد، ١٣٩٨ه/ ١٩٧٧م، ص ٨٢.

(٣) ابن بلكين، عبد الله: كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيرى في غرناطة، حرره: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٧ه/ ٢٠٠٦م، ص ٣١؛ السيد عبد العزيز سالم: قرطبة، ص٨٣؛ السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ، ص ٣٣٠؛
Collins Roger: Caliphs and Kings: Spain ٧٩٦ – ١٠٣١ , wiley blackwell, united kingdom , ٢٠١٢ , p. ١٩٨.

يفتشون عن شخصية يلتفون حولها[١]. فوجدوا ضالتهم في شخصية سليمان بن الحكم المستعين[٢]، أملاً في أخذ الثأر من أهل قرطبة الذين سلبوهم أموالهم، وهتكوا أعراضهم، وأهانوا زعماءهم[٣]، فكان لهم ما أرادوا فالتقى الجمعان أهل قرطبة من جهة والبربر بقيادة سليمان المستعين من جهة أخرى، ودارت رحى معركة عرفت بقنتيش خسرها أهل قرطبة وراح ضحيتها منهم عشرون ألفاً من القتلى[٤]، وقد خلدت تلك المعركة لهولها في شعر الشعراء[٥]. وبذلك فإن هذا التنامي في النزعات الإثنية والطائفية بين عناصر المجتمع الأندلسي، الذي كان من نتائجه هذا الصراع المستمر بين الأرستقراطية العربية، والبربر قد أضر بالجانبين، ونتج عنه زيادة نفوذ قادة الجند[٦].

قد يسأل سائل هل هذا الصراع الذي نجم عن تعاظم النزعات الإثنية والطائفية هو وليد الساعة؟ ونجيب على هذا التساؤل بالقول: إن ما حصل

---

(١) عبد المجيد عبد الرضا: المرجع السابق، ص ٨٥.

عبد المجيد عبد الرضا: المرجع السابق، ص ٨٥.

(٢) ابن الأَبَّار: الحُلَّة السّيرَاء، ٢ / ٦ حاول البربر قبل ذلك الالتفاف حول الرشيد إلا أنه قتل.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ٧٥- ٧٦.

(٤) المراكشي: المعجب، ص ٣١؛ سامية مصطفى مسعد: التكوين العنصري للشعب الأندلسي وأثره على سقوط الأندلس ٩٣ – ٤٢٢ه، عين للدراسات، القاهرة، ١٤٢٤ه/ ٢٠٠٤م، ص ١٤٠ – ١٤١.

(٥) ابن دراج القسطلي، أبو عمر أحمد بن محمد: ديوان ابن دراج القسطلي، تحقيق: محمود علي مكي، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٨١ه/ ١٩٦١م، ص ٦٣.

(٦) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، ١/ ٩٦.

كان نتيجة لتناقضات متراكمة موغلة في القدم سادت مجتمع الأندلس، ولكن قوة الحكام وسطوتهم منعت ظهور تلك التناقضات، أو على أقل تقدير أجلت من ظهورها، حتى حصل الانفجار بسبب ضعف الحكام، وبذلك فإن النزعات الإثنية والطائفية يقترن وجودها وتناميها بضعفهم.

صفوة القول أن البربر لم يكونوا على استعداد للتخلي عن مناصبهم ومراكزهم التي كسبوها بدمائهم وقوتهم بمساندة المنصور بن أبي عامر، والعودة إلى التهميش، والإقصاء الذي مورس ضدهم من قبل الأرستقراطية العربية لذلك تعاظمت نزعتهم الإثنية وتنامت.

- الصقالبة

انخرط الصقالبة في المجتمع الأندلسي منذ البدايات الأولى لقيام الدولة الأموية، إذ كان يُؤتى بهم صغاراً عن طرق الشراء أو الأسر، ويربون تربية إسلامية، ويدربون على الخدمة في قصر الإمارة ولدى الحريم، وازداد عددهم في قصور بني أمية شيئاً فشيئاً حتى وصل في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦- ٢٣٨هـ/ ٨٢١- ٨٥٢ م) إلى ما يقرب من خمسة آلاف، ألفان منهم في داخل القصر والمتبقي على بابه، وازداد نفوذهم وتدخلهم في الشؤون السياسية والإدارية والعسكرية في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، وتولى بعضهم أرفع المناصب في الدولة مثل بدر بن أحمد الصقلبي الذي ولى خطة الخيل والبرد، والوزارة فضلاً عن الحجابة[1]، أما عددهم فوصل إلى ثلاثة آلاف وسبعمائة

(١) أحمد مختار العبادي: الصقالبة، ص ٨.

وخمسين رجلاً في مدينة الزهراء حين وفاة الناصر[١]، ولم يكن نفوذهم أقل مما كان عليه في عهد الخليفة الحكم المستنصر الذي ولى حجابته جعفر بن عبد الرحمن الصقلبي[٢].

كما برز عدد منهم في مجال الأدب مثل فاتن الصقلبي الذي ناظر العالم اللغوي صاعد بن الحسن البغدادي عند المنصور بن أبي عامر فأفحمه، وأعجب به المنصور، وفي مجال اللغة برز **مجاهد الصقلبي**[٣] صاحب **دانية**[٤] الذي ألف كتابا في اللغة أظهر براعته فيها وتمكنه منها[٥]. إن تعاظم عدد

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الاعلام، ص ٤٠؛ سالم عبد الله الخلف: نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس،الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٢٤ه/ ٢٠٠٣م، ٢/ ٤٩٣.

(٢) أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص ٩؛ يوسف أحمد بني ياسين: مشاريع الاستبداد بالدولة الأموية في الأندلس عقب وفاة الحكم المستنصر (٣٦٦ه/ ٩٧٦م)، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد/ ٣٥، العدد/ ٢، عَمان، ١٤٢٩ه/ ٢٠٠٨م، ص ٢٦٣.

(٣) يحيط الغموض أصله فيدعى بالرومي، ويدعى بالعامري لأنه كان أحد موالي بني عامر، ويرجح البعض نسبه إلى أصل إسباني، ملك دانية والجزر. وللمزيد من التفصيل انظر: عصام سالم سيسالم: جزر الأندلس المنسية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٥ه/ ١٩٨٤م، ص ١٣٦ – ١٣٨. وعاش في كنف مجاهد الصقلبي أحد أبناء نصارى البشكنس، وهو أبو عامر أحمد بن غرسية والذي يعد أقوى صوت شعوبي في الأندلس.انظر: ابن سعيد: المغرب، ت ٦٠٦، ٢ / ٤٠٧؛ احسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دار الشروق، عَمان، ١٤١٨ه/ ١٩٩٧م، ص ١٣٧ .

(٤) مدينة في شرق الأندلس تقع على البحر المتوسط، حصينة ومنيعة، وعامرة حسنة، منها كان يخرج الأسطول للغزو، وفيها مصنع لصناعة السفن. وللمزيد من التفصيل انظر: الحميري: الروض المعطار، ص ٢٣١ – ٢٣٢؛ العذرى: نصوص عن الأندلس، ص ١٩.

(٥) حسن يوسف دويدار: المجتمع الأندلسي، ص ٥٧ – ٥٨؛ عبد الواحد ذنون طه: الدس

الصقالبة وتطاول نفوذهم المتزايد الذي تمتع به فتيانهم[١] جعلهم قوة ذات شأن في مجريات الأحداث في الأندلس، إذ أصبحوا قوة مؤثرة في أخذ البيعة للخليفة، فعندما عزم الخليفة الحكم المستنصر أخذ البيعة لنفسه كان أول تفكيره فيهم، وأخذها منهم قبل الآخرين، وهذه إشارة واضحة على أنهم أصبحوا يشكلون قوة ذات تأثير كبير يحسب لها حساب في تلك الظروف، وقد أكدها الخليفة الحكم المستنصر عندما بدأ بهم، فضلاً على أنهم تكفلوا بأخذ البيعة للخليفة من الآخرين ((وأول ما أخذ البيعة على صقالبة قصره الفتيان المعروفين بالخلفاء الأكابر، كجعفر صاحب الخيل والطراز وغيره من عظمائهم، وتكفلوا بأخذها على من ورائهم وتحت أيديهم من طبقتهم وغيرهم...))[٢].

كما أن احتفالات البيعة للحكم المستنصر أفرزت ظاهرة على قدر كبير من الأهمية، تمثلت بأهمية دور الصقالبة في المجتمع الأندلسي، إذ مابرحوا أن كونوا طبقة هامة في الأندلس تقدمت على سائر طبقات المجتمع من أرستوقراطية عربية، بل حتى أمراء بني أمية في تقديم البيعة للخليفة[٣]. ومن كل ذلك جعلهم يظنون ((أن لا غالب لهم وان الملك بأيديهم))[٤]، فراحوا يشاركون

الشعوبي بالأندلس، مجلة دراسات أندلسية، العدد/ ٤، تونس، ١٤١٠ ه/ ١٩٨٩م، ص ١٣.

(١) مفردها فتى وهو لقب أطلق على من يصل إلى مراتب عالية في البلاط من الصقالبة. انظر: عبد المجيد نعنعي: تاريخ الدولة الأموية، ص ٣٨٩.

(٢) المقري: نفح الطيب، ١ / ٣٨٦ – ٣٨٧.

(٣) عبد المجيد نعنعي: المرجع السابق، ص ٣٨٧.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ / ٢٥٩.

في الفتن والمؤامرات التي عصفت بقرطبة وكان من أشهر زعمائهم في ذلك خيران العامري[١]، بل أسهموا مساهمة كبيرة في تولية الحكام وعزلهم كما حصل في تدخلهم لعزل هشام المؤيد وتنصيب المغيرة وهو أخو الحكم المستنصر بدلاً من هشام[٢]. وتكاتف الصقالبة من أجل قتل الخلفاء كما حصل في مقتل الخليفة الأموي محمد المهدي عندما تآمر الفتى واضح ومعه عدد من الصقالبة وأقدموا على قتله[٣]، والحال ذاته ينطبق على خيران العامري الذي كان راغبا بالحجابة عند الخليفة **المرتضى** عندما ناصره، ولكن سرعان ما تآمر على المرتضى وقتله[٤].

إن كل هذا النفوذ الواسع بحد ذاته، وعلى الرغم من أنه تم على حساب عناصر أخرى في المجتمع الأندلسي، فإنه لم يشكل تهديداً صارخاً للكيان الأندلسي، وحتى لم يكن ذا بال لولا ضعف الخلفاء، وتنامي النزعة العنصرية والإثنية للصقالبة التي رافقت ذلك النفوذ، إذ إن هؤلاء الصقالبة اعتبروا أنفسهم عنصراً مميزاً في المجتمع، بل وحاولوا المحافظة على كيانهم الخاص، ولم يختلطوا كثيراً مع العناصر الأخرى، حتى إن البعض منهم لم يتعلم اللغة

(١) حسن يوسف دويدار: المرجع السابق، ص ٥٧.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق، ٢/ ٢٦٠؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص ٣٢٣.

(٣) مؤلِّف مجهول: تاريخ الأندلس، ص ٢٣٩؛ ابن الأَبَّار: الحُلَّة السّيرَاء، ٢/ ٧.

(٤) ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني: الذخيرة في محاسن لأهل الجزيرة، تحقيق: احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٤١٧ه/ ١٩٩٧م، ق١/ م١/ ص ٤٥٥؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ٣ / ١٢٧.

العربية ولذلك أطلق عليهم الخرس[١].

اهتبل الصقالبة نفوذهم وتفوق عدد منهم في مجال اللغة والأدب، فراحوا يفخرون بأنفسهم، بل ويتعالون على العرب بذكر مفاخرهم وانجازاتهم إلى الحد الذي حمل أحدهم وهو حبيب الصقلبي على تأليف كتاب في عهد الخليفة هشام المؤيد أسماه (الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة) وهو من الكتب المفقودة، وَعُدَّ مظهرا من مظاهر الشعوبية إذ يظهر النعرة الإثنية المتطرفة للكاتب وتعصبه لقومه، ويظهر أيضاً فضل الصقالبة على الأدب العربي[٢].

زعم البعض بأن ما قام به حبيب الصقلبي من تأليف كتاب الاستظهار والمغالبة... من باب الدفاع لا الهجوم، وذلك بسبب قوة الدولة في الأندلس[٣]، فإن الأمر لا ينبغي أن ينظر إليه بهذا الشكل لمن تتبع زيادة نفوذ الصقالبة وامتزاج رغباتهم الشخصية مع ذلك النفوذ المتنامي والسلطات التي

---

(١) حسن يوسف دويدار: المجتمع الأندلسي، ص ٥٩؛ عبد الواحد ذنون طه: الدس الشعوبي بالأندلس، ص ١٣.

(٢) جمعة شيخة: من مظاهر الشعوبية في الأندلس، مجلة دراسات أندلسية، العدد / ٤، تونس، ١٤١٠ه/ ١٩٨٩م، ص ٢٦. إن تفاخر الصقالبة بأنفسهم لم يكن ناجما عن ازدياد نفوذهم وتفوق عدد منهم في اللغة والأدب فحسب وإنما مضافا إليه بناؤهم لدولة قوية جلبوا لها كل ما يعزز من بنائها من سلاح وصناع والى غير ذلك انظر: ابن عذارى: البيان المغرب، ٣ / ١٦٠.

(٣) أحمد مختار العبادي: الصقالبة، ص ١٦ – ١٧؛ إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص ١٣٧.

أنيطت بهم، وتعاظم نعرتهم الإثنية التي راحت تظهر بوضوح شيئاً فشيئاً، وخاصة في هذا الكتاب الذي عد تعبيراً عن الصراع العنصري[١]، لذلك فإن ما قام به الصقالبة هو هجوم ناجم عن حالة استغلال لسياسة التسامح التي سادت الأندلس لقرون[٢].

لكن بعد أن انفرط عقد الدولة في الأندلس، وقسمت البلاد الموحدة إلى دول بزعامات مختلفة أصبح التصريح العنصري أكثر وضوحاً من ذي قبل[٣]، وقد سيطر الصقالبة على المناطق الشرقية من البلاد إذ لجأ إلى هذه المناطق العديد من الأجناس من صقالبة، وإفرنجة، وبشكنس حتى أصبحوا كتلة قوية[٤]، وبذلك أصبح الجو مناسباً للتعبير عن آرائهم المعادية للعرب، وقد استغلوا غياب الحكم العربي وتوفر الحماية لهم، لذلك تمادوا في إظهار نقمتهم على العرب، وتعاظم نزعتهم الإثنية من خلال تفضيل العجم على العرب كما هو الحال عند صاحب كتاب المخصص والمعروف بابن سيده الذي ضمه واحتضنه بلاط مجاهد العامري[٥].

قصارى القول أن الصقالبة لم يكونوا أقل شأناً من البربر في عدم التخلي

---

(١) جمعة شيخة: المرجع السابق، ص ٢٦.

(٢) عبادة عبد الرحمن رضا كحيلة: الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٤١٦ه/ ١٩٩٥م، ص ٢٩.

(٣) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص ١٣٧ .

(٤) ابن بسام: الذخيرة، ق٣/ م١/ ص١٦.

(٥) عبد الواحد ذنون طه: الدس الشعوبي بالأندلس، ص ١٥ .

عن المراكز التي اكتسبوها بقربهم من الحكام على المدى الطويل، لذلك تعاظمت نعرتهم الإثنية واعتزازهم بأنفسهم لاسيما وقد أصبح الكثير منهم ذوي شأن في القيادة أو الثقافة والأدب.

- المولَّدون

تركز وجود المولَّدين في الأندلس في المدن: اشبيلية، وسرغوسة، وطليطلة[١]، والذين ترجع أصولهم إلى الروم، والجلالقة، والقشتاليين، والأرغونيين، واليهود الذين استقروا في الأندلس قبل الفتح العربي الإسلامي[٢].

كان المولَّدون يشعرون بالغبن من حكام قرطبة الذين حرموهم من المناصب والمراكز العالية في الدولة، وقد سلبوهم الحقوق السياسية والاجتماعية، لذلك فإنهم قاموا بالعديد من التمردات، ولعل أخطرها تمرد عمر بن حفصون، إلا أن هؤلاء المولَّدين كانوا معول هدم لجسم الدولة الأموية في الأندلس، ليس من كثرة تمرداتهم فحسب، وإنما من تعاظم نزعتهم الإثنية، وحنينهم إلى سالف مجدهم عندما كانت طليطلة عاصمة لهم[٣]، وكان اعتزازهم بقوميتهم ظاهراً إلى الحد الذي جعلهم يمتشقون الحسام إلى جانب

---

(١) عبد المجيد نعنعي: تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٦٣.

(٢) ابن الأحمر، إسماعيل: بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور، الرباط، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، ص٢٣.

(٣) عصام الدين عبد الرؤوف الفقى: تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، ص ٨١.

النصارى ضد سلطات قرطبة[١]، فضلاً عن اعتزازهم بكثرتهم[٢].

لقد استطاع المولَّدون تكوين شخصية مميزة من خلال تمسكهم بتراثهم الاسباني، على الرغم من تعلمهم من المسلمين اللغة، والدين، والعادات، والتقاليد[٣]، إلا أن الكاتب كولان يعتقد بأن هؤلاء المولَّدين نسوا أصلهم الإسباني على الرغم من أن الكثير منهم يحمل أسماء اسبانية[٤]، ولكن يبدو أن ما ذكره كولان بأن المولَّدين نسوا تراثهم وأصلهم قد ناقض نفسه أولا فيما ذكر، وجانب الصواب ثانيا لأنهم لم ينسوا تراثهم، أما عن تناقضه فهو يذكر بأنهم نسوا تراثهم، وفي نفس الوقت قال بأنهم يحملون أسماء إسبانية، ولذلك لا يمكن لمن نسي تراثه أن يبقى متمسكاً بأسماء ذلك التراث، أما فيما يتعلق بمجانبته للصواب فهو قد أغفل أن الكثيرين منهم تمسكوا بألقابهم التي كانت قبل إسلامهم وحملوا تلك الأسماء التي تدل على نسبهم الاسباني مثل: بني موسى بن فرتون، وبني مردنيش، وبني غرسية، وبني ردلف، وبلغ الحد من تعاظم نزعتهم الإثنية واعتزازهم بلغتهم وتراثهم أن استخدموا الطريقة الاسبانية القديمة في تفخيم الأسماء، وراحوا يحورون الأسماء العربية ويضيفوا عليها صبغة اسبانية تميزها عن العربية، إذ أضافوا المقطع (أون – Un) لآخر

(١) عبد المجيد نعنعي: المرجع السابق، ص ٢٦٤.

(٢) عصام الدين عبد الرؤوف الفقى: المرجع السابق، ص ٨١.

(٣) عبد المجيد نعنعي: تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٦٤.

(٤) ج. س: الأندلس، ترجمة: إبراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م، ص ٩٣.

أسمائهم لتصبح حفصون، عبدون، زيدون[١]، كما أوجدوا لأنفسهم لغة خاصة بهم هي اللغة الرومانسية والتي هي مزيج من اللغة اللاتينية العامة والعربية، وكانوا يكتفون بتعلمها ونشرها بين طبقات المجتمع الأندلسي[٢].

لكن النعرة الإثنية عند المولَّدين ما كانت لتنمو لو كان هناك سلطة قوية، وتصرف سليم من الطبقة العربية الحاكمة في المجتمع الأندلسي[٣]، لذلك نراها تحولت إلى تمردات واضطرابات شغلت الدولة عقود عديدة من السنين، وكلفتها الجهد والوقت، والخسارة في العدة والعدد.

خلاصة القول أن المولَّدين لم ينسوا تراثهم السابق وما كانوا عليه أيام كانت عاصمتهم طليطلة، ولم ينسوا شعورهم بالغبن من السلطات الحاكمة في قرطبة من خلال حرمانهم من الوظائف الكبيرة لذلك تعاظمت نزعتهم الإثنية، وقد عبروا عنها بطرق شتى ومنها التمردات.

ثالثا: الحركات الانفصالية

هي الحركات التي تظهر في الدول ذات القوميات المتعددة، والتي تشعر بالاضطهاد، والتي تسعى للحصول على الحكم، وتكوين سلطة مستقلة عن الدولة الأم، وقد تستخدم العنف للوصول إلى ما تبغي[٤]، وقد ظهر في

---

(١) عبد المجيد نعنعي: المرجع السابق، ص ٢٦٤ .

(٢) عصام الدين عبد الرؤوف الفقى: تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٤٢؛ عبد المجيد نعنعي: المرجع السابق، ص ٢٦٤.

(٣) عبد المجيد نعنعي: المرجع السابق، ص ٢٦٤.

(٤) إسماعيل عبد الكافي: الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية، مؤسسة كتب عربية، مصر

الأندلس عدد من تلك الحركات التي سنتناولها تباعا.

- حركة عبد الله بن المنصور[١]

كان عبد الله بن المنصور محمد بن أبي عامر ناقماً على أبيه، ويشعر بالاضطهاد بسبب تفضيل أخيه عبد الملك عليه، إذ ذهب عبد الله هذا إلى سَرَقُسْطَة ونزل عند صاحبها عبد الرحمن بن مطرف التجيبي الذي زاد من حدة الخلاف، وأججه بين عبد الله وأبيه المنصور، واتفق الاثنان على القضاء على المنصور محمد بن أبي عامر في أول فرصة تسنح لهما ((فكان في قلبه على أبيه سعير نار، اذكاها عبد الرحمن بن مطرف واضرمها))[٢]، وكان التجيبيون يتمتعون بنوع من الاستقلال الذاتي على الرغم من إعلان تبعيتهم للسلطة المركزية وكان عبد الرحمن قبل ذلك يراقب بحذر سياسة المنصور في القضاء على رجال الدولة ويتوجس منها[٣]، واتفقا أيضاً على تقاسم ملك الأندلس

- قويسنا، ١٤٢٦ه/ ٢٠٠٥م، ص ١٦٦ .

(١) هناك من يعتبرها مؤامرة مثل: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الرابع / ص ٥٤٩؛ سعدون نصر الله: تاريخ العرب السياسي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤١٩ه/ ١٩٩٨م، ص١٥٠. إلا أن الراجح أنها حركة انفصالية أقرب ما تكون منها إلى المؤامرة لأن الهدف من تلك الحركة هو تكوين سلطة مستقلة عن الدولة الأم في الثغر الأعلى بقيادة عبد الرحمن التجيبي، والذي سعى من أجل الحصول على الحكم، استنادا إلى تعريف الحركة الانفصالية، فضلاً عن أن القائمين بهذه الحركة كان هدفهم الواضح ((أن يقسما ملك الأندلس)) انظر: ابن عذارى: البيان المغرب، ٢/ ٢٨٣.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ / ٣٨١.

(٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الثالث / ص ٥٤٩.

فتكون قرطبة من حصة عبد الله، **والثغر الأعلى**[١] وأحوازه من حصة عبد الرحمن، وقد انضم إليهما عدد من الجند ورجال الدولة من الناقمين على المنصور محمد بن أبي عامر مثل حاكم طليطله الوزير عبد الله بن عبد العزيز المرواني الذي يعرف بالربضي[٢].

يبدو أن عبد الرحمن التجيبي باتفاقه مع عبد الله نحى منحىً مغايراً لمنهج أسلافه عندما تحالفوا مع جيرانهم من الممالك النصرانية في عهد عبد الرحمن الناصر[٣]، ولكن تطور الأحداث جعله يتجه في هذا الاتجاه.

لكن هذه التحركات سرعان ما وصلت إلى مسامع المنصور، وفي طريقة ذكية غلب عليها المكر والخديعة استطاع استدراج رؤوس الحركة هذه، ومنهم عبد الله ابنه الذي فر منه إلى مملكة قشتالة التي وعدت بحمايته، ولكن دون جدوى حتى سلمته إلى أبيه بعد إصرار المنصور على قتالها، الذي أمر بقتله، ونفذ به في سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م، أما الآخرون من رؤوس الحركة فتمت تصفيتهم قبله الواحد تلو الآخر[٤].

---

(١) هو الخط الدفاعي الأول في شمال الأندلس ويمتد على وادي الابرو الذي يصب في البحر المتوسط شرقا وقاعدته سرقسطة وللمزيد من التفصيل انظر: احمد مختار العبادي: صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص ١٤.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق، ٢ / ٣٨١ .

(٣) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق والصفحة.

(٤) ابن عذارى: المصدر السابق، ٢ /٣٨١ – ٣٨٤؛ رينهارت دوزي: المسلمون في الأندلس، ٢/ ١٢٨.

يبدو أن ما قام به المنصور من قتل لإبنه لهو دليل واضح على قسوة قلبه في ظروف علته ينحو هذا المنحى المؤلم، فعبد الله بحركته هذه، وتحالفه مع خصوم أبيه التجيبيين الذين أشعلوا نار الحقد في قلبه، فضلاً عن لجوئه إلى عَدُوة المسلمين مملكة قشتالة، فهو دليل على امتلاء قلبه بالحقد والضغينة على والده، وإن قُدر لتلك الحركة النجاح لانهارت الدولة وقسمت، ولقضي على المنصور، ولما كان عبد الله سائراً في غيه لقتل والده، كان متلهفا لتحقيق أطماعه السياسية التي رسمها مع حاكم سَرَقُسطَة عبد الرحمن التجيبي، إذ كان سلوك المنصور هذا وتصرفه في قتل ابنه تصرفاً سياسياً بامتياز، وحازماً دون أدنى شك متجاوزا بذلك العاطفة الأبوية، وذلك من أجل المحافظة على النفس والسلطان. ولم يكن المنصور بما قام به من قتل لإبنه الحالة الوحيدة، بل سبقه إليها بني أمية حكام الأندلس، عندما أقدم عبد الرحمن الداخل على قتل أبناء عمومته، والأمير عبد الله أيضاً أقدم على قتل ولديه وإخوته، ثم عبد الرحمن الناصر الذي قتل ولده[١].

- حركة مجاهد الصقلبي

تعرض قسم من الصقالبة العامريين إلى الاضطهاد والتهجير عندما نفاهم الخليفة محمد المهدي إلى أطراف البلاد بنهاية حكم الأسرة العامرية للأندلس، فاستقروا في شرق الأندلس حتى ملكوها واستقام لهم الأمر[٢]، وكان من هؤلاء الصقالبة مجاهد العامري أحد غلمان الأسرة العامرية قبل نهاية تسلط

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الرابع / ص ٥٥٠ – ٥٥١.

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ٣ / ٧٧؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص ٣٤٨

تلك الأسرة[١]، وقد آثر مجاهد الابتعاد كبقية قادة الجيش عن عبد الرحمن شنجول لسوء تصرفاته[٢]، وفي خضم هذه الظروف واشتعال الفتنه (البربرية) والتي أولى أن تسمى فتنة ابن عبد الجبار حسب رأي ابن عذارى[٣]، غادر مجاهد قرطبة ومعه عدد كثير من أتباعه إلى شرق الأندلس واستولى على دانية، وصادف أن ثار واحد من بني أمية في شرق الأندلس سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م ويدعى عبد الله المعيطي كان قد غادر قرطبة أثناء الفتنة، فأقامه مجاهد ومن معه خليفة عليهم بعد أن بايعوه، ودعي بأمير المؤمنين، ثم توجهوا إلى **جزر البليار**[٤] في البحر المتوسط[٥].

استطاع مجاهد ومن معه من أبناء جلدته من صقالبة في أيام الفتنة من تكوين مملكة مطلة على حوض البحر المتوسط في دانية، وملك جزر البليار، وكان قد فتح جزيرة سردانية الكبيرة في البحر المتوسط سنة ٤٠٦هـ/١٠١٦م، وكانت مملكته مركز جذب للعلماء والشعراء حتى قصدوها من كل مكان[٦].

---

(١) ابن بسام: الذخيرة، ق١ / م١ / ص ٢٢.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق، ٣ / ٦٨ -٦٩ .

(٣) المصدر نفسه، ٣/ ٧٦. ليس من الإنصاف أن نلصق ما حصل بالأندلس من فتنة بعنصر واحد من عناصر المجتمع، وذلك لأن كافة عناصر المجتمع ساهمت بها بشكل أو بآخر، لذا فإن الأصح أن نطلق عليها تسمية فتنة أهل الأندلس بدلاً من الفتنة البربرية .

(٤) وهي خمسة جزر(ميورقة، منورقة، بابسة، فرمنتيرة، قبريرة) تقع في الشمال الغربي من البحر المتوسط، وأطلق عليها العرب الجزائر الشرقية لوقوعها شرق الأندلس انظر: عصام سالم سيسالم: جزر الأندلس، ص ١٥ – ١٧.

(٥) ابن الأثير: الكامل، ٨/ ١١١؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ٣/ ١١٥ – ١١٦.

(٦) الحميدي: جذوة المقتبس،، ص ٣٢٠؛ الضبي: بغية الملتمس، ص٤١٢ – ٤١٣؛ ابن سعيد:

يبدو أن طموح الصقالبة بقيادة مجاهد لم يقف عند حد القيادة والقرب من الحكام، بل تعداه حتى كونوا مملكة في شرقي الأندلس، واستقلوا عن الخلافة في قرطبة بهذه الحركة، وعمل مجاهد على إعطاء مملكته هذه صفة شرعية فقام بتنصيب المعيطي خليفة ودعاه أمير المؤمنين، وبذلك فقد استغل عواطف المسلمين في الأندلس والمتطلعين إلى خليفة أموي، وقوي ينضوون تحت لوائه، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل حاول إعطاء انطباع القوة لهذا الخليفة من خلال فتح سردانية، وأن يجعل الصبغة الإسلامية على مملكته أكثر وضوحاً.

- حركة الحسن بن كنون

كانت الدولة الأموية في الأندلس شديدة الاهتمام بالمغرب الأقصى، لذلك تدخلت فيه من أجل السيطرة على الموارد التجارية فيه للحيلولة دون وصول الفاطميين إلى تلك الموارد، وكان سلاحهم فيه هو قبائل زناته، وخاصة من هاجرت تحت ضغط الفاطميين إلى المغرب الأقصى، وكانت قبائل صنهاجة حليف الفاطميين في المنطقة، لذلك فإن النزاع الزناتي الصنهاجي لم يكن بدوافع إثنية أو طائفية بل كان صراعاً من أجل مراقبة طرق تجارة الصحراء لطرف آخر[1]. لهذا يمكن أن يطلق على هذا الصراع " الصراع بالنيابة "، وكان الأدراسة في بلاد المغرب يتحينون الفرص للإستيلاء على أي منطقة يتمكنوا

المغرب، ٢/ ٤٠٠. يذكر ابن عذارى في أحد النصوص بأن المنصور بن أبي عامر جعل مجاهد العامري عاملاً على دانية انظر: ابن عذارى: المصدر السابق، ٣/ ١٥٥. ولكن وفاة المنصور في سنة ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م أي قبل الفتنة بكثير انظر: الحميدي: المصدر السابق، ص ٧٠؛ الضبي: المصدر السابق، ص ٩٩ – ١٠٠ .

(١) محمود إسماعيل: الأدارسة، ص ١٦٠.

منها، حتى هاجموا **أصيلا**[١] واستولوا عليها في عهد عبد الرحمن الناصر[٢]، ولكن الناصر استطاع أن يقطع شأفة الأدارسة ويضع حدا لنفوذهم فيها[٣].

واستطاع الحكم المستنصر أن يقضي على وجود الأدارسة في بلاد الريف ويستسلم زعيمهم الحسن بن كنون لقوات الحكم سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م[٤]، واتجه الحسن إلى قرطبة ليستقر بها بعد أن أعطاه الحكم المستنصر الأمان وأوسع له العطاء ومن كان معه حتى سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م عند ذاك أخرجه الخليفة وعشيرته من الأندلس، إذ أجلاهم إلى المشرق ثم ركبوا البحر من المرية باتجاه تونس، حتى التجأ الحسن بن كنون واستقر به المقام أخيراً في مصر، حيث الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٤٤-٣٨٦هـ/٩٥٥-٩٩٦م) الذي رحب به وعشيرته ووعده بالنصرة[٥]. من كل ذلك يمكن أن نصل إلى حقيقة مفادها بأن بلاد المغرب تابعة إلى الأندلس في تلك الفترة، ولا يمكن لمن ملك الأندلس أن يفرط بها بأي حال من الأحوال، ودافع ذلك هو دافع تجاري بالمرتبة الأولى كما نوهنا عن ذلك من قبل.

---

(١) هي أول مدينة في العدوة مما يلي المغرب، تقع إلى الغرب من طنجة، لها سور وخمسة أبواب. وللمزيد من التفصيل انظر: الحموي: معجم البلدان، ١/ ٢٧٩.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ١ / ٢٣٤.

(٣) محمود إسماعيل: الأدارسة، ص ١٦٦.

(٤) محمد عبد الله عنان: دولة الاسلام، العصر الأول / القسم الرابع / ص ٤٩٧.

(٥) السلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري و محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٣٨٤هـ/ ١٩٥٥م، ١/ ٨٨.

ولذلك سعى الحسن بن كنون جاهداً من أجل القيام بحركة يقتطع من خلالها جزءاً حيوياً مما يسيطر عليه بني أمية وهو بلاد المغرب الأقصى لما يمثله هذا الجزء من تأثير كبير على الأندلس فيما لو سيطرت عليه قوة معادية لهم. لذلك اتصل الحسن بالخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٤٤- ٣٨٦هـ/ ٩٥٥- ٩٩٦م)، وطلب منه المساعدة والنصرة لحركته هذه من أجل سيطرته على بلاد المغرب الأقصى[١]، فاستجاب الخليفة الفاطمي له، وكتب إليه بعهده للحسن على بلاد المغرب، وأمر عامله على أفريقية **بلكين بن زيري**[٢] بإمداده بالجيش[٣]. وسار بلكين بجيشه قاصدا المغرب الأقصى سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م واستطاع السيطرة عليه، وتمكن من هزيمة كافة أمراء زناته الذين تصدوا لقواته، حتى سيطر على المغرب الأقصى بأكمله[٤]، وبصحبته الحسن بن كنون[٥]، الذي استطاع كسب قبائل البربر إلى صفه حتى

(١) محمود إسماعيل: الأدارسة، ص ١٧١.

(٢) هو أبو الفتوح بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، يسمى أيضا يوسف ولكن بلكين هو الاسم الأشهر له، استخلفه المعز بن المنصور العبيدي (الفاطمي) على افريقية عند توجهه إلى مصر وللمزيد من التفصيل انظر: ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ١/ ٢٨٦.

(٣) السلاوي: الاستقصا، ١/ ٨٨ .

(٤) مؤلِّف مجهول: مفاخر البربر، تحقيق: عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق، الرباط، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص ١٠٦؛ محمد عبد الله عنان: دولة الاسلام، العصر الأول / القسم الرابع / ص ٥٤٥.

(٥) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص ١٧٢.

أطاعوه[١]، إلا أن وفاة بلكين وانسحاب جيشه إلى أفريقية ترك الباب مفتوحا لقوات الأندلس لتتصدى لقوات الحسن بن كنون[٢].

أقدم المنصور بن أبي عامر وفي هذا الوقت بالإيعاز إلى ابن عمه المعروف بعسكلاجة بالتوجه للقضاء على الحسن بن كنون، وجهزه بجيش كبير وقلده أمر المغرب، ثم أرسل له ابنه عبد الملك بقوات إضافية، واستطاعت قوات المنصور الانتصار على قوات الحسن الذي طلب الأمان فأجيب، وأرسل إلى قرطبة ولما علم به المنصور بعث من قتله في الطريق[٣]، وكان سبب قتله لكثرة نكثه، وعدم التزامه بالعهود السابقة[٤]، وبالقضاء على هذه الحركة سنة ٣٧٤ه/ ٩٨٤م سقطت دولة الأدارسة[٥]، واختفى أفرادها لتحل محلها الدولة بني زيري المغراوية متخذة من حاضرة الأدارسة فاس حاضرة لها[٦].

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٩٣.

(٢) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص ١٧٢. توفى بلكين سنة ٣٧٢ه بين تلمسان وسجلماسة. انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام – تاريخ المغرب العربي، تحقيق: احمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني، دار الكتاب،: الدار البيضاء، ١٣٨٤ه/ ١٩٦٤م:، ٣ / ٦٧. هناك من يذكر بأن بلكين انسحب من قتال زناته لينشغل بقتال برغواطة ثم توفى سنة ٣٧٣ه انظر: مؤلِّف مجهول: المصدر السابق، ص ١٠٧.

(٣) السلاوي: الاستقصا، ١/ ٨٩.

(٤) مؤلِّف مجهول: مفاخر البربر، ص ١٠٩؛ رينهارت دوزي: المسلمون في الأندلس، ص ١٢٣.

(٥) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٩٤.

(٦) محمود إسماعيل: الأدارسة، ص ١٧٢.

مما تجدر الإشارة إليه هو أن هذه الحركات كان لها عامل مساعد حفز قادة الحركات على القيام بالانفصال، وأن هذا العامل تمثل بالعامل الجغرافي، إذ إن الطبيعة الجغرافية للأندلس جعلت هناك موانع طبيعية يصعب اجتيازها، مما جعل الأندلس مقسمة على شكل أقاليم تكاد تكون منفصلة، الأمر الذي ساعد وشجع على الميل إلى الانفصال، وخاصة في المناطق التي تغذيها نزعات إثنية أو طائفية[١].

رابعا: الانحطاط الثقافي

- حرق وبيع المكتبات ومحاربة الفكر

تعد المكتبات واحدة من الأماكن التي حظيت باهتمام السلطة في الأندلس، وخاصة في عهد الخليفة الحكم المستنصر، إلا أن تلك المكتبات التي زخرت بها الأندلس تعرضت للدمار والخراب، إذ يعد هذا الخراب أحد المؤشرات الدالة على انحطاط الثقافة في الأندلس،إذ يعد المنصور بن أبي عامر أول من قام بتخريب وإتلاف مكتبة الخليفة الحكم المستنصر بدافع الرغبة في التقرب من عوام الأندلس، وتقبيحاً لما ذهب إليه الحكم من حبه لتلك الكتب والريبة من صحة ما بها من مخطوطات، وكتب فلسفة، وكتب منطق، وعلم النجوم عندما قام بإحراق وإتلاف عدد كبير من تلك المخطوطات والكتب حتى بلغ أحمالاً، ثم جمع رمادها وذره في نهر الوادي الكبير، ورمى قسم منها في آبار القصر وأهال عليه التراب والحجارة، وبذلك فقد دمر القسم الأكبر

(١) حسن يوسف دويدار: المجتمع الأندلسي، ص ٩٠.

من تلك المكتبة الكبيرة[١].

كان لتردي الأوضاع جراء الفتنة اللجوء إلى بيع ما بقصر قرطبة من كتب بأسعار بخسة، وعندما فرغت خزائن بيت المال في زمن الفتنة قام الفتى واضح حاجب الخليفة هشام المؤيد ببيع مقتنيات مكتبة الخليفة الحكم المستنصر العامرة بأبخس الأثمان وأقل قيمة، من أجل الحصول على المال[٢].

---

(١) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص ٦٦؛ ايلي لومبير: تطور العمارة الإسلامية، ص ١٢٩؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الرابع / ص ٥٨٠؛ عبادة عبد الرحمن رضا كحيلة: الخصوصية الأندلسية، ص ١٩؛ محمد المنوني وآخرون: التاريخ الأندلسي من خلال النصوص، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ١٤١٢ه/ ١٩٩١م، ص ٤٢. إلا أن هناك من يذكر سبباً آخرَ للحرق غير الذي ذكر في المتن، مفاده أن أعداء المنصور بن أبي عامر أرادوا الإساءة إليه من خلال اتهامه بأنه زنديق، فأراد أن يدحض هذه التهمة ويبعدها عنه فأمر باستدعاء الفقهاء وطلب منهم جمع كل الكتب التي لا تتماشى مع الدين في مكتبة الحكم المستنصر و تم حرقها، فأحرقت الكثير من كتب الفلسفة وكتب العلم الأخرى. انظر: عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، جمع مادته: أحمد إبراهيم الشريف، راجعه: مختار العبادي، دار القلم، ط٢، القاهرة، ١٣٨٤ه/ ١٩٦٤م، ص ١٣٧. ولكن مهما يكن من أمر فإن ما قام به المنصور من حرق للكتب لا يبرره اتهام أعدائه له بالزندقة، ولكن كان بإمكانه عمل إجراءات أخرى يستطيع من خلالها تبرئة نفسه مما اتهم به، وبذلك فإن حرقه لتلك الكتب نراه من المآخذ التي تأخذ عليه.

(٢) صاعد الأندلسي: المصدر السابق، ص ٦٧؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين، ص ٤٠٦. ولكن هناك من يشير إلى أن انقراض محتويات مكتبة الحكم المستنصر يعود إلى استيلاء ملوك الطوائف على الأندلس انظر: القلقشندي، أبو العباس أحمد: صبح الأعشى في صناعة الانشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٠ه/ ١٩٢٢م، ١ / ٤٦٧. ولكن ما حصل لم يكن كذلك لأن حرق محتويات المكتبة المذكورة كان قبل استيلاء ملوك الطوائف على الأندلس،

كما نهب ما تبقى من الكتب عندما دخل البربر عنوة إلى قرطبة وخربوها[١]، وحتى المكتبات الخاصة لم تسلم من السلب والنهب من أيدي البربر، وذلك عندما نهبوا ثمانية أحمال من الكتب التي تعود إلى أبو حفص عمر بن عبيد الله بن يوسف كان قد أعدها لينقلها إلى مكان آخر[٢]، وبسبب الحاجة والغلاء بيعت مكتبة القاضي عبد الرحمن بن فطيس في مسجده، وكان قد وصل سعرها إلى أربعين ألف دينار قاسمية، واستمر بيعها مدة عام كامل[٣].

والأمر الجدير بالإشارة إليه هو ما ذكر عن السلب والنهب الذي أصاب مكتبة الخليفة الحكم المستنصر من أنه كان سبباً في انتشار كتب العلوم المختلفة والتي أصبحت في متناول أعداد كبيرة من الناس، وعاملاً من عوامل انتعاش الحركة العلمية، والفلسفية على وجه الخصوص[٤]. ولكن كيف يمكن أن يحسب البعض ما حصل انتعاشاً للحركة العلمية في الوقت الذي تعيش فيه حاضرة الأندلس حالة من الفوضى والاضطرابات والحرب الأهلية؟ وإذا كان

والصحيح هو ما ذكر في المتن، ولعل سبب ما نقله القلقشندي بهذه الصيغة ربما يعود إلى أخطاء النساخ.

(١) المقري: نفح الطيب، ١/ ٣٨٦.

(٢) ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى الخزرجي الأنصاري: الصلة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، القاهرة، ١٤٢٩ه / ٢٠٠٨م، ت ٨٦٠، ٢/ ٣٩٩ – ٤٠٠.

(٣) المصدر نفسه، ت ٦٨٣، ١ / ٣٠٩ – ٣١٠.

(٤) احسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص ١٣٧ – ١٣٨.

الازدهار العلمي وصل إلى عدد من مدن الأندلس الأخرى بسبب المصنفات العلمية و هجرة العلماء إليها، فهذا ازدهار جزئي لا يمكن أن يعمم على كافة مدن الأندلس وخاصة العاصمة قرطبة التي تمثل الرأس من الجسد، وقديما قيل إذا فسد الرأسُ فلا قيمة لباقي الجسد.

ولم يقف الأمر على حرق وإتلاف ذخائر الملوك من الكتب وبيعها، بل تعداه إلى محاربة الفكر المستنير ومطاردة الفلاسفة والمعتزلة[١]، وكان كل من يتعامل بتلك العلوم المحظورة يعد خارجاً عن الملة[٢]، وصار العلماء يخشون على أنفسهم من التعامل مع تلك العلوم حتى أبعدوها عن الأعين، بل ويكتمون معرفتهم بها، الأمر الذي حتم عليهم التعامل مع العلوم المسموح بها فقط كالطب والحساب وما إلى ذلك، وعبر عن ذلك صاعد الأندلسي حين قال: ((... فسكن أكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك وخملت نفوسهم وتستروا بما كان عندهم من تلك العلوم ولم يزل أولو النباهة من ذلك الوقت يكتمون ما يعرفونه منها ويظهرون ما تجور لهم فيه من الحساب والفرائض والطب وما أشبه ذلك الى أن انقرضت دولة بني أمية في الأندلس وافترق الملك...))[٣].

- قتل وتشريد العلماء والأدباء

إن من المؤشرات الدالة على انحطاط الثقافة إهمال الجوانب الثقافية كافة

(١) محمد المنوني وآخرون: التاريخ الأندلسي، ص ٤٢.

(٢) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص ٦٧.

(٣) طبقات الأمم، ص ٦٦ – ٦٧.

في أي بلد نتيجة لأسباب شتى كالحروب والصراعات الداخلية، أما في الأندلس فقد تعرض العلماء ممن كان لهم سهم وافر في الحياة الثقافية والعلمية في الأندلس إلى الموت والقتل والتهجير والتشريد نتيجة للأحوال المتردية في قرطبة أو نتيجة لهجوم البربر على قرطبة سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م، وكان في مقدمة من قتل المؤرخ ابن الفرضي الفقيه الراوية الأديب الفصيح صاحب كتاب تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، إذ قتل مظلوماً من قبل البربر عند اقتحامهم قرطبة سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م[١]، والفقيه محمد بن سعيد بن سري الذي اشتهر بعديد من المؤلفات منها: جامع واضح الدلائل وكتاب روضات الأخبار في الفقه، وكتاب عمل المرء في اليوم والليلة، وصديقه محمد بن قاسم الأموي المعروف بالجالطى، وقد قتلا في نفس السنة المذكورة لقتل ابن الفرضي من قبل البربر إذ كان ينادي عليهم عند اقتحامهم قرطبة قائلا: ((إلى. إلى ياحطب النار طوبى إلي إن كنت من قتلاكم)) حتى قتلوه[٢]. كما قتل عدد كبير من المؤدبين بلغ الستين مؤدبا مما أدى إلى إغلاق مدارسهم، وانفضت حلقات الدرس في تلك المدارس وتعطل التلاميذ[٣].

---

(١) ابن بسام: الذخيرة، ق١/ م١/ ص ٦١٥؛ ابن بشكوال: الصلة، ت ٢٧٣، ١ / ٢٥٣؛ أمين توفيق الطيب: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ٢/ ٥١. يبدو وجود خطأ ارتكبه النساخ في هذا المرجع عندما ذكر وفاة ابن الفرضي أو ربما حصل خطأ طباعي غير مقصود عندما حددت سنة ٤٠٠هـ في حين أن الصحيح هو سنة ٤٠٣هـ كما ذكر في المتن .

(٢) ابن بشكوال: المصدر السابق، ت ١٠٥٩، ٢ / ٤٨٩ – ٤٩١.

(٣) ابن بسام: المصدر السابق، ق١/ م١/ ص ٤٤ .

أما فيما تعلق بنزوح العلماء أو تشريدهم، فقد هاجر العديد منهم بسبب تردي الأوضاع في قرطبة، ومنهم الزاهد الورع أبو محمد حماد بن عمار بن هشام الذي نزح إلى طليطلة حتى توفى فيها سنة ٤٣١هـ/ ١٠٤٤م[١]، وأبو الوليد هشام بن غالب بن هشام الغافقي، وكان من أهل العلم وقد خرج من قرطبة ليسكن في غرناطة، ثم استقر بإشبيلية، وتوفى سنة ٤٣٨هـ/ ١٠٥١م[٢]، وأبو أيوب سليمان بن بيطير بن سليمان بن ربيع، من أهل قرطبة، عني بالعلم قديما وقيده، خرج إلى مالقة وتوفي فيها سنة ٤٠٤هـ/ ١٠١٤م[٣].

هاجر عدد من العلماء ثم عادوا إلى قرطبة عند تحسن الأوضاع نسبياً، ومنهم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد الأموي النجاد، وله في علم الفرض والحساب وعلم العربية، وخرج من قرطبة إلى الثغر في الفتنة، ثم عاد إليها ومات فيها[٤]. لقد ترتب على هجرة العلماء إلى تلك المدن تغير إيجابي دون أدنى شك، تمثل في وجود هؤلاء العلماء كالمصابيح تنير العلم للآخرين، وبذلك تحسنت تلك المدن علمياً إلى حد ما، ولكن لا يمكن اعتبار ذلك نهضة علمية بمفهوم النهضة العام لأن التغيرات التي حصلت لم تكن شاملة لكل البلد وإنما اقتصرت على مدن معدودة على حساب مدن أخرى كالعاصمة قرطبة مثلا، وبذلك يمكن اعتباره تحسن محدود في الجانب العلمي. وإذا كان

(١) ابن بشكوال: الصلة، ت ٣٥١، ١ / ١٥٦ .

(٢) المصدر نفسه، ت ١٤٣٤، ٢ / ٦٥٢.

(٣) المصدر نفسه، ت ٤٤٤، ١ / ١٩٦ – ١٩٧ .

(٤) المصدر نفسه، ت ١١٣٧، ٢ / ٥٢٠ – ٥٢١.

هذا حال العلماء بما ابتلوا به من هجرة وتشريد، فهناك طبقة أخرى أصابها ما أصاب طبقة العلماء وهم أهل الشعر والأدب، ومنهم الشاعر ابن دراج القسطلي المتقلب بين مدح الأمويين، ومدح العلويين[١] الذي يعد من أسباب خروجه من قرطبة، إذ جنت عليه الفتنة فراح يتنقل للارتزاق بين الأمراء والملوك[٢]، والحال ذاته بالنسبة إلى الشاعر صاعد البغدادي الذي هاجر من قرطبة بسبب الحاجة وطلباً للارتزاق، ولعدم قدرته على سداد غرامة مالية لم يساعده الخليفة هشام المؤيد – في دولته الثانية - وعلي بن وداعة على سدادها[٣]، أما الشاعر احمد بن عبد الملك بن شهيد فغادر قرطبة إلى مالقة مع رفاقه[٤].

أما الشعر فقد قل نتاجه، وانحسرت أغراضه، وإن أحداث الفتنة ومآسيها صرفت الشعراء عن الشعر الجاد، وراحت أغراضه تنحسر في التغني باللهو والشراب هرباً من الواقع، والكذب والنفاق لغرض الأمن والاحتماء من الظلم وجور الحكام، أو لغرض البكاء على الأطلال أو وصف أشياء تافهة لغرض اللهو والعبث، والغرض الآخر هو الغزل الشاذ بدافع المجون[٥].

---

(١) محمود علي مكي: التشيع في الأندلس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٤ه/ ٢٠٠٤م، ص ٥٥.

(٢) ابن بسام: الذخيرة، ق٣ /م١/ ص ١٠.

(٣) المصدر نفسه، ق٤/ م١/ ص ٥٥.

(٤) المصدر نفسه، ق١/ م١/ ص ٣٢١.

(٥) أحمد هيكل: الأدب الأندلسي، ص ٣٦٤ – ٣٦٦.

وخلاصة القول إن ما أصاب قرطبة من تدمير للبلاد وهلاك للعباد، وما نتج عنه من هجرة العلماء، وأهل الشعر والشعراء لهو دليل واضح على انقراض مدينة الأدب وحاضرة الأندلس بعدما كانت مناراً للعلم والأدب، حتى اصطبغت بالعجمة وتوشحت بالعامية ((... فامَّحَى لذلك رسم الأدب بها، وغَلَب عليها العُجْمة، وانقلب أهلها من الإنسانية المتعارفة إلى العامية الصريحة...))[1]. وبذلك فإن كل ما تقدم من قتل وتشريد للعلماء هو من مظاهر سقوط الخلافة الأموية في الأندلس. وفي ختام هذا الفصل تم تسليط الضوء على مظاهر انهيار الخلافة الأموية في الأندلس، تلك المظاهر التي كانت الخطوة الأولى، والمقدمة التي أدت إلى ذلك السقوط، والتي تكونت من عدة مظاهر مجتمعة ومتفاعلة فيما بينها مكونة لمظاهر ذلك الانهيار.

(١) ابن بسام: المصدر السابق، ق١/ م١ /ص ٦٧ .